وما يُدريك ...

أ.د. عبدالله بن هادي القحطاني

وما يُدريك ...

أ.د. عبدالله بن هادي القحطاني

تأليف:
أ.د.عبد الله بن هادي القحطاني

المراجعة اللغوية:
جميل مبارك - د.عبد الجليل بدا

الإخراج الفني:
حسن باهارون

لا تدري

لعلَّ اللهَ يُحدِثُ بَعد ذلك أمراً

وما يدريك...

تمر بالإنسان مواقف فكرية متكررة في حياته، تجعله يتساءل أحيانًا، كيف كان ذلك الموقف؟ كيف تغيرت مجريات الأمور؟

أمر كان يحبه لم يتحقق، قضية كان يسعى لكسبها فاتته، شخص علق عليه كبير الأمل ولكنه أخلف ظنه، تجارة لم تنجح، وهلم جرا...

ويتدبر قول المولى سبحانه: ﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق: 1)؛ يستشعر المسلم أن ثمة حكمة ربانية خلف كثير من الأمور، لا يعلمها إلا الله سبحانه، يدبرها بحكمته، لا يمكن أن نعي كُنْهها إلا بأثر رجعي بعد حين، إذ دبرها الله في عالم الغيب الذي نؤمن به ولا نراه!

وبعد مرور الأيام، وربما السنين، نرى الحكمة الإلهية البالغة مشاهدة، فيزيدنا ذلك يقينًا أننا كلما سلمنا أمرنا لله، وتوكلنا عليه حق التوكل، ورضينا بقضائه، وأيقنا يقينًا في تدبيره سبحانه؛ انزاح عنا كل هم وغم وحزن، وهنا تتجلى الأهمية الإيمانية القصوى لتلك الأدعية النبوية العظيمة:

"باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم" صباحًا ومساءً.

وحين يصبح ويمسي: "حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم" .

وحين يدخل الإنسان في موتته الصغرى: "اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك... الحديث" (البخاري 6315، مسلم2710).

وقبلها كلام المولى سبحانه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (غافر: 44)

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ * عليه يتوكل المتوكلون﴾ (الزمر: 38).

كل هذا جعلني أتدبر أمورًا مرت عليّ أو على من تربطني به علاقة أو أعرفه، قد تظهر في بداياتها غير مرضية، ولكن الأيام تكشف عن حكمة ربانية، ورحمة إلهية، وتدبير من الرحمن الرحيم، كان في غاية الحسن واللطف، وعظيم المصلحة، وعجيب التدبير، وربما كشف سرًّا مستورًا في عالم الغيب..!

ولهذا كان سرد هذه القصص الحقيقية..

فجاء عنوان هذ الكتيب: (وما يدريك..؟!)؛ اقتباساً من الآية الكريمة: ﴿لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق: 1).

فارق والده الدنيا وهو طفل صغير، وتولّت رعايته أمه مع أختيه، واحدة تكبره، والأخرى أصغر منه، والده كان شيخ جماعته ومقدمهم، صنديد يُضرب بشجاعته وكرمه وفصاحته ومعرفته الأمثال، كان عالماً في محيط من الجهل المدلهم..

غادر الوالد الدنيا تاركًا الأرملة الوفية الأبية مع أولادها الثلاثة، كأنهم فراخ حمامة، تقدم إليها الكثيرون، فقد كانت شابة جميلة أصيلة من بيتٍ عال العماد، لكنها آثرت أن تضحي بكل شيء من أجل رعاية أولادها، رغم صعوبة ظروف المعيشة وتنكر القريب وعجز الصديق، واختارت الترمل مع الأيتام إيثارًا لهم على نفسها، وكأنها تستلهم أبيات الحطيئة في وصف حالة أولاده:

مَاذَا تقول لأفْراخٍ بذي مَرَخ زُغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ

غادر عائلهم الدنيا ولم يترك لهم إلا حفنات محدودة من تراب، تكدح الوالدة المكلومة في زراعتها والاهتمام بها؛ لسد رمق فراخها المكلومين وحفظ كرامتها وكرامتهم، وإن وأدت أنوثتها وضحّت بجمالها وشبابها.

من اليتم إلى الريادة

ومايُدريك ...

وما يدريك؛ فلعل هذا اليتيم الفقير المعدم الوحيد يكون شامة في الخير والكرم والمروءة..

كانت آمالها معلقة بعد الله في أن يكون ذلك الطفل اليتيم سيدًا على خطى والده، وأن تنشئ ابنتيها لتكونا زهرتين في حياتها.

وما يدريك؛ فلعلّ هذ اليتيم الفقير المعدم الوحيد يكون شامة في الخير والكرم والمروءة، فالأيتام هم قادة الدنيا، وسيدهم وأفضلهم نبينا الكريم عليه من ربه أفضل صلاة وتسليم.

ويأتي للأرملة الشابة أحد إخوانها المشفقين، ويخبرها بأن كفؤا كريما قد خطبها، فترد بكل صراحة وصرامة: "ومن أخلي هادي له؟".

فيقول: خلينا نشوف ويش بيصير هادي! ولكن أملها في هادي كان بلا حدود..

كانت تخاطب أخاها الحريص عليها والمشفق على أولادها: وما يدريك يا علي؟ لعل هادي يكون قرة عين لي ولك ولكل أسرته..

وتمر الأيام ويكبر هادي وسط ظروف صعبة واحتقار كثير من أهل القرية، بل لم يكن ينادى باسمه؛ فقد كانوا ينادونه: ولد "عمرة" نسبة إلى والدته الأرملة..!!

هكذا بذلت الوالدة الشابة قصارى جهدها في تنشئة ولدها اليتيم وأخواته اليتيمات.. وقد كانت تصبر على الضيم، وتتحمل الأذى من القريب والبعيد، والعدو والصديق، ويحدوها أمل عظيم بأن هادياً سيكون قامة، يشار إليه بالبنان، ويعتمد عليه عند الملمات، كانت واثقة بالله بأنه سيسير على خطى والده - مقدم جماعته - ويكون مثالاً يحتذى.

هكذا بذلت الوالدة الشابة قصارى جهدها في تنشئة ولدها اليتيم وأخواته اليتيمات..

ومما يروى عنها أنها كانت تضرب بالنجر لكي يظن الجيران أنها تصنع قهوة، بينما لم يكن في النجر إلا قليلٌ من التين.

كانت شخصية فذة وعصامية متميزة، فقد كان الرجال يحسبون لها ألف حساب قبل النساء، يحكى عنها أنها قامت مرة بذبح أضحية أولادها وسلخها دون طلب المساعدة من أحد.

نشأ هادي وكان كلُّ شيء في الحياة لأمه الأرملة الشابة، فقدت عقدت عليه الآمال العظيمة بعد الله، ونشأ في مجتمع غلب عليه عليه انشغال كلٌّ بنفسه، ولم يكن هناك جمعيات لكفالة الأيتام أو ضمان اجتماعي لرعاية الأسر المعوزة.

كان هناك التوكل على الله الذي يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا، كان هناك العمل الشاق والجهد من أجل لقمة العيش، وكانت الأم الرؤوم هي من يتحمل كامل المسؤولية في فلاحة الأرض ورعاية الماشية وتربية الأولاد، بكل صبر وجد وآمال كبيرة.

وتمر الأيام .. وتبلغ الحاجة أقصاها فلم يخطر على بالها من تلجأ له بعد الله إلا أخاها الوفي، ولكن موطنه بعيد، فهو يبعد عنها ما يزيد على 100 كيلومتر في زمن لم تكن تعرف فيه السيارات، ولا يكاد أحد يعرف بلدًا آخر غير قريته التي ينشأ فيها ويشب ويشيب، وربما يموت دون أن يعرف بلدًا غيرها.. بل لم يكونوا يعلمون عن العالم الخارجي شيئاً البتة، فلم يكن في القرية كلها مذياع واحد.

كانوا فقراء، لكنهم كانوا أعزاء بالله فقلوبهم معلقة بالسماء وان كانوا كادحين في الأرض ..

ولكن تحت وطأة الحاجة الماسة والأنفة عن التذلل لأحد، حضرت الأم المكافحة ولدها الغض الذي لم يبلغ الحلم بعد لخوض تجربة يعجز عنها الكثير من الرجال؛ فقد قررت أن ترسل ابنها الوحيد اليتيم إلى خاله الشهم الكريم، من قرية الفرحة قرب سراة عبيدة إلى قرية آل بن نعمان على مشارف أبها، فقد شعرت أن السيل قد بلغ الزبى، وليس لها إلا الله ثم هادي الذي ربته تربية الرجال العصاميين لكي يقوم بتلك المهمة الصعبة؛ فزوّدته بكسرات من الخبز وأرسلته حافي القدمين دقيق الساقين بالي اللباس، فلم يكن هناك أحد ينتقل إلى خاله ليخبره بحالهم، أرسلته ليعرض عليه حالهم وما يعانونه من شظف العيش وقلة الحال وقسوة الدهر، فمضى الفتى يجوب القفار وينتقل من قرية إلى أخرى دون رفيق أو دليل أو راحلة، يهتدي برعاية الله له ثم بدعاء تلك الأم الحسيرة الذي يخترق حجب السماء؛ فيهيئ الله له طرقاً من التسهيل.

نعم كانوا فقراء، لكنهم أعزة بالله؛ فقلوبهم معلقة بالسماء، وإن كانوا كادحين في الأرض، لقد كانت تلك الرحلة مغامرةً كبيرةً وخيارًا صعبًا في غياب خيارات أخرى لحفظ الكرامة والأنفة.

وصل الطفل هادي إلى قرية خاله بعد أن دلّه على بيته بعض من لقيه في طريقه، فقد كان عَلَمًا معروفًا، لقد كانت مفاجأة الخال الشهم بقدوم ابن أخته لا يمكن وصفها، عانقه عناق الأب المشتاق لابنه الغائب.

لقد وصلته رسالة أخته عندما رفضت كل طلبات الزواج، لترعى هادياً وأخواته، ليكون رجلاً تصغر في طريقه الصعاب، وهذه أول تجربة يعجز عنها الكثير من الرجال، لك أن تتصور إعجاب هذا الخال بالأخت العظيمة والفتى النجيب، يا لها من لحظات أذهلت أهل البيت كلهم، بل القرية بأكملها، فقد أصبحت حديث سكان القرية لأيام عديدة.

ويطيب للفتى المقام منعمًا مغتبطًا بين أخواله الذين احتفوا به أيما احتفاء، لكن قلبَه معلق هناك، حيث أمه الأرملة وأختاه اليتيمتان يترقبن الطريق القادم إلى القرية غدوة وعشيًّا.

ويستبشرون بكل قادم لعله هادي..!! لعل هادياً أن يفد من عند خالهم بما يسد الرمق أو يستر الجسد.

ومع كريم الضيافة وحسن الحفاوة ورغد العيش لم يكن هادي ليهنأ بعيشة هنية دونهن، فأبلغ خاله برغبته الملحة في العودة إلى والدته وأختيه، فزاد ذلك خاله إعجابًا به وتعلقًا بشخصيته العفيفة ونفسه الأبية واستشعاره الكبير بالمسؤولية في هذه السن الصغيرة.

فقد كان أنجب أهل القرية من هم في سنه ولايؤتمنون على أكثر من رعاية غنيات صغيرات. "نعم يا عمرة.. لقد أنجبت رجلاً يستحق تلك التضحية من أجله، لقد وصلتني رسالتك عيانا بيانًا" كلمات يتمتم بها الخال الوفي.

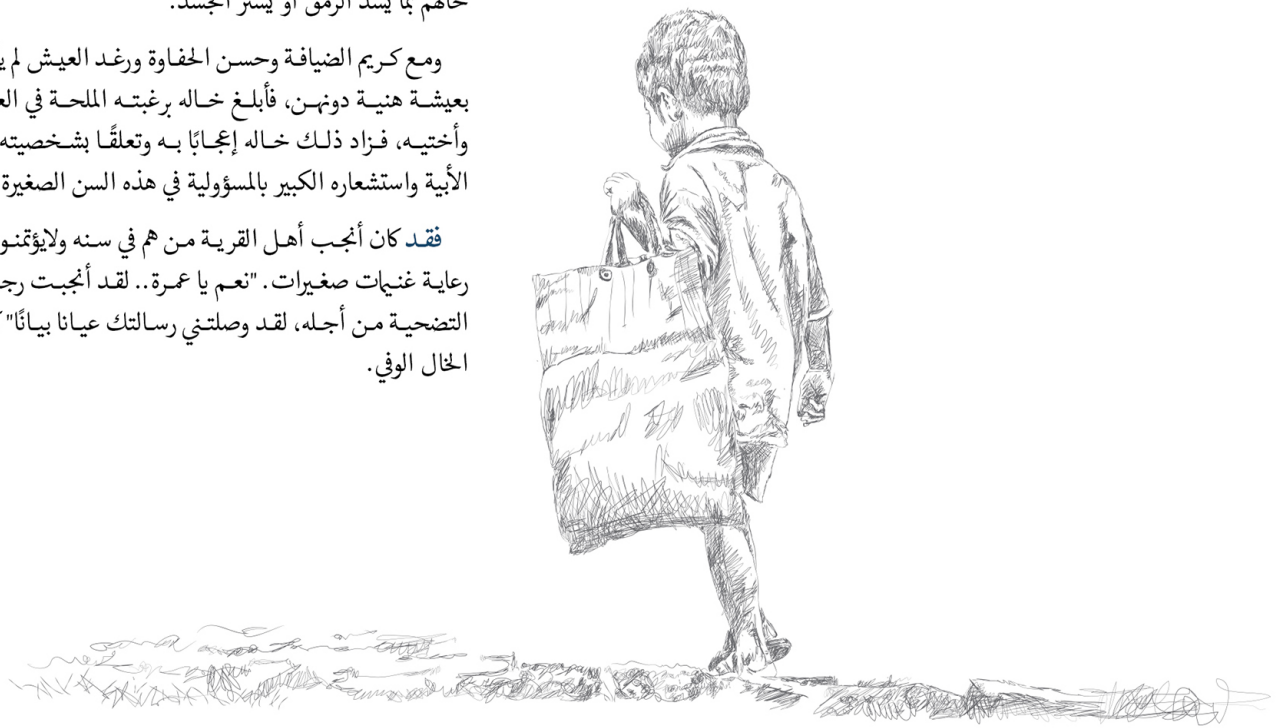

لقد أهّلته تلك الأرملة العصامية لتجشم الصعاب ومكابدته الطرق الوعرة والتحديات الكبيرة، لقد تذكر الخال كلمات أخته الأرملة قبل عقد من الزمان، وهي تقول: وما يدريك يا علي لعل الله يقر أعيننا بهادي.

نعم لقد كان لفراسة الأم المكلومة وكلماتها الواثقة أكبر الوقع على قلب الأخ الشفيق.

وما هي إلا أيام حتى زود الخال الشهم ابن أخته بوريقات في غاية الأهمية إلى أصحاب له في قرى قريبة من قرية أخته، طالبًا فيها تزويدهم بما يحتاجونه من طعام ومتاع ولباس، فيما يتكفل هو بكل شيء، فلم يكن بوسع الفتى الصغير أن يحمل معه إلا المتاع القليل، مع العلم أن خاله قد عرض عليه راحلة يركبها حتى يصل إلى والدته ويضع عليها بعض ما يحتاجونه، فأجابه الفتى بأنه لا يوجد لدى والدته وأخته ما يكفيهم فضلا عما يعطونه للراحلة، فهم لايكادون يجدون ما يسدون به الرمق.

ما كان للخال إلا أن ينزل على منطق الفتى العالم بواقعه، وتودعه قرية آل بن نعمان بالقلوب والدموع ومعهم الخال الوفي وأهل بيته بكل حسرة وألم ورحمة، ولكن لا بد لعجلة الحياة أن تسير ويعود الفتى من حيث جاء.

> لقد كان لفراسة الأم المكلومة وكلماتها الواثقة أكبر الوقع على قلب الأخ الشفيق.

غادر هادي وقلبه يسبقه إلى أمه الأرملة الفقيرة وأختيه اليتيمتين، شوقه يسابقه ليحمل لهن البشرى بفرج من الله قريب، وكان بلا شك قد طاب له المقام مدة وجيزة مع أخواله، لكنه لم يهنأ بعيش وهو يتذكر حال أمه وأختيه.

بدأ رحلة العودة والتحدي ومواجهة الخطورة مرة أخرى، ولكنه الآن يمتلك تجربة سابقة، ولكنها كانت أيضا رحلة مليئة بالأهوال واللحظات الحرجة، كان يروي رحلة العودة وما واجهه فيها؛ فيقول:

غادر هادي وقلبه يسبقه إلى أمه الأرملة الفقيرة وأختيه اليتيمات..

"كانت رحلة العودة إلى والدتي غاية في الصعوبة، مع ما خالطها من شغف بلقاء أمي وأُخْتَيَّ وتبشيرهن بالفرج القريب بإذن الله، فقد غادرت دار خالي العامرة وحياتهم الرغيدة محملًا بجميل الهدايا، إذ فاقت قدري على حملها بعد أن اعتذرت عن الراحلة، فجزى الله خالَتَيَّ حمامة وسالمة خير الجزاء، وأسكنهما وخالي فسيح الجنان؛ فقد أعطوا من كل غال لديهم، وحملني خالي رسالة مختومة إلى خالي جار الله الذي كان في قرية آل مذعان المجاورة لقريتنا.

وسرت تاركًا أبها وآل بن نعمان خلفي، حاملًا في قلبي وذاكرتي أجمل الذكريات، متجهًا إلى أمي وأُخْتَيَّ سيرًا على قدميَّ؛ فقد اعتذرت عن الراحلة، ومضيت أسأل الركبان وأسترشد بالسالكين، وكان همي الكبير: أين أقضي المساء؟! فلم يكن بمقدوري أن أصل في نفس اليوم؛ حيث كانت المسافة تقارب مئة كيلومتر.

وما إن حل المغرب حتى كنت في قرية آل بن لدنة، وقد كانت ليلة مطيرة باردة، لم أجد لي فيها مأوى، ولم أجد بها من يستقبلني،

ويرثي لحالي، ومضيت حتى وصلت إلى قرية عرفت فيما بعد أنها لآل السواد، وفي تلك الليلة المطيرة الظلماء لم أكن أرى شيئا في طريقي، فكنت أتخبط في أحراش شوكية، وأتجنب أن تزل بي قدم إلى آبار أو حفر في طريقي، حتى بزغ لي نور سراج داخل منزل في الأفق البعيد، فجعلته لي هادياً في طريقي المظلم، وجعلته نصب عيني ولم أكن أبالي بما تقع قدماي عليه، فلم أكن أبصر شيئًا.

وما إن اقتربت من مصدر الضوء، حتى وجدته بيتًا محاطًا بسور عال، فطرقت الباب، ووقفت أرتجف من شدة البرد والخوف، وكررت الطَرق، وبعد برهة سمعت صوتًا من الداخل كأنه زئير مخلوط بكلماتٍ من كلمات الصد والجفاء، وما هي إلا دقائق حتى فتح باب الحصن، فإذا برجل في منتصف العمر يخرج مزمجرًا، نظر إليّ شزرًا، ومضى في طريقه دون أن ينبس بكلمة واحدة، وإنما رمقني بنظرة مخيفة، وقد كنت في حالة من البرد والخوف لا يعلم بها إلا الله، ولكن دعاء الوالدة المكلومة كان يظللني في كل سهل ووادٍ بفضل ربي.

وما إن غادر ذلك الرجل حتى دخلت الدار دون شعور، فإذا بامرأتين في استقبالي، رأيت في أعينهما الشفقة والرحمة، علمت فيما بعد أنهما زوجتا الرجل، وقد تنازعتا معه على إدخالي رحمة بي في تلك الليلة المطيرة المظلمة، فجزاهما الله خير الجزاء، وكافأهما على حسن صنيعهما معي تلك الليلة جنات النعيم.

تذكرت والدموع تملأ عيني والألم قد أخذ مني مأخذه، فقد كنت أسير على الأحجار والأشواك حافي القدمين، ومن شدة البرد

والخوف لم أكن أشعر بشيء، وبينما كنت أتأمل حالي، وقد وجدت لي ملجأ ومأوى أنام فيه، تذكرت دعوة والدتي التي كانت تكررها دائمًا: "الله يجعل لك في العدو صديقاً، وفي الوعر طريقًا، ولو ضاقت عليك يفرجها".

نعم أماه؛ فقد استجاب الله دعاءك لي..!

يخبرنا صاحب القصة - وهو والدي الكريم الشيخ هادي بن عبد الله القحطاني - أنه صحا من نومه في الصباح ووجد على جسده آثار "الفحاسة"، وهي الزبدة التي تؤخذ من اللبن؛ فقد قامت إحدى المرأتين بتمسيد رجليه وهو غارق في نومه، ولا يعي من حوله؛ لما ألمَّ به من ألمٍ ونصب، وقامت بعد ذلك بغسل رجليه من الوحل الذي كان يتخبط فيه من دون وعي في ظلمة الليل، فقد كان في حالة يرثى لها.

في تلك الليلة المطيرة الظلماء لم أكن أرى شيئاً في طريقي فكنت أتخبط في أحراش شوكية..

ولم يمر والدي بتلك القرية إلا وهو يدعو لها، وتمنى لو عرف أين بيتها ومن هي ليرد لها الجميل، ولكن هيهات؛ فقد مرت عشرات السنين، وخير وفاء هو الدعاء أو ما يقدم لها بين يدي الله، فلعل الله حرّم جسدها على النار بتفريج هم الفتى المسكين تلك الليلة.

هكذا كانت طيبة الناس وفعل الجميل ابتغاء الأجر من الله، فالمعروف يبذل دون رجاء مقابل من أحد لمن يُعرف ومن لا يُعرف، جزاهم الله فسيح الجنان.

وما يدريك أن هادياً اليتيم الفقير المعدم ابن الأرملة الأبية يصبح سيدًا في قومه، ويفتح الله عليه أبواب الرزق والتوفيق،

لقد أصبح هادي أباً لعدد كبير من الأبناء و الأحفاد، ولم ينس هادي يوماً من الأيام تضحيات الأم النبيلة ..

ليصبح من أثرياء قبيلته وساداتها، وممن يشار إليهم بالبنان، بل ويسدده الله ليُوقف أغلى ماله في سبيل الله، بعدما بذل الجهد الكبير والأموال الطائلة، وتجاوز العقبات الكبيرة، لتكون أفضل أمواله التي تُقارب قيمتها 60 مليون ريال وقفًا عن والديه، وخاصة تلك الأم التي نذرت حياتها وآثرت ترملها والصبر على شظف العيش من أجل رعاية أولادها.

نعم إنني أتذكر قولها - رحمها الله - لأخيها عندما أشار عليها باللحاق به وتزويجها بدلاً من حياة الترمل، حيث قالت: (وما يدريك يا علي لعل الله أن يبارك في هادي)..

لقد أصبح هادي أبًا لعدد كبير من الأبناء، وله عشرات الأحفاد، ولم ينس هادي يوماً من الأيام تضحيات الأم النبيلة، ولا مواقف الخال المشرفة، فما ذكرهما إلا بكى كما يبكي الصبي اليتيم أمه، نعم! لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

كثيرًا ما يتذكر والدي - حفظه الله - دعاء والدته: (اللهم اجعل لهادي في العدو صديقًا، وفي الوعر طريقًا... وإذا ما ضاقت عليه تفرجها).

رحمها الله، وأسكنها دار القرار والنعيم، وجزاها عن ابنها وبنتيها خيرًا، إنه على ذلك قدير.

ما يدريك؟! لعل خطوة صغيرة في سبيل الخير والدعوة يكون لها - بفضل الله - كبير الأثر..

بدأت القصة خلال فصل الربيع لعام 1990م، في ولاية ميشيغان بالولايات المتحدة الأمريكية، بعد صلاة الجمعة من مساء ذلك اليوم الربيعي الجميل، في المركز الإسلامي في مدينة إيست لانسينغ عاصمة ولاية ميشيغان.

قررت مجموعة من الدعاة - وعلى رأسهم إحدى قامات المجتمع الأمريكي في ميشيغان، وكان اسمه بعد الإسلام: يوسف سليمان، وكان رجلا بألف، ولديه من الهمة والحب لهداية الناس مايذكرك بالسلف الأول - إجابة دعوة أحد الأطباء الاستشاريين الكبار في شمال أمريكا، وكان اسمه د. فاروق من أصول باكستانية.

من كنيسة مهجورة إلى مسجد عامر

ومايُدريك ...

قررت مجموعة من الدعاة - وعلى رأسهم إحدى قامات المجتمع الأمريكي في ميشيغان، وكان اسمه بعد الإسلام: يوسف سليمان، وكان رجلا بألف، ولديه من الهمة والحب لهداية الناس مايذكرك بالسلف الأول - إجابة دعوة أحد الأطباء الاستشاريين الكبار في شمال أمريكا، وكان اسمه د. فاروق من أصول باكستانية.

وكان المركز الإسلامي في إيست لانسينغ يمثل واحدا من أهم المراكز الإسلامية في الولايات الشمالية للولايات المتحدة الأمريكية، وذلك لموقعه الإستراتيجي قرب واحدة من أكبر عشر جامعات أمريكية، جامعة ولاية ميشيغان، ويرتادها مئات الطلبة المسلمين من أنحاء العالم الإسلامي كافة.

تقدم إلى المركز البروفيسور فاروق طالبًا المساعدة في دعوة المسلمين في المدينة التي يسكن فيها، واسمها قراند رابدز، وهي مدينة تبعد عن إيست لانسينغ ما يقارب مئة ميل، وكان - جزاه الله خيرًا - قد اشترى كنيسة مهجورة وحولها إلى مسجد، إلا أن المسلمين في هذه

المدينة كان غالبهم مقصرين، بل وأكثرهم قد بعدوا عن دينهم؛ وذلك لعدم وجود مسجد يجمعهم؛ فقرر أن يحيي هذه المدينة ويحول تلك الكنيسة إلى مسجد لجمع شتات المسلمين فيه.

كانت هذه المدينة يومًا ما مدينة الأثاث في العالم، وهاجر إليها الكثير من العرب، خاصة من الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين، وأصبح كثير منهم من كبار التجار في المدينة، حتى إنك ترى أسماء كثير من المتاجر عربية.

> كانت هذه المدينة يوماً ما مدينة الأثاث في العالم، وهاجر إليها الكثير من العرب..

ألحَّ البروفيسور فاروق بالدعوة والتذكير بالمسؤولية أمام الله، وأهمية مساعدته على تفعيل وظيفة المسجد في جمع الجالية المسلمة وإعادتها إلى دينها، تحرك بنا يوسف سليمان مع ثلاثة آخرين كان بينهم الأخ حاتم كال من أهل الطائف، وكلنا أمل بأن نستطيع عمل شيء لدعوة إخواننا وأخواتنا في قراند رابدز.. وحالنا: لا تدري لعل الله أن ييسر أمرًا لا نعلمه إن صدقنا النية وبذلنا الجهد.

وما إن حطت رحالنا في مسجد النور الذي اشتراه البروفيسور فاروق حتى حان وقت العصر، لقد كان المسجد حقًا تحفة معمارية رائعة، إذ قام - جزاه الله خيرًا - بإجراء الترميم والتعديلات، وإعادة الفرش ومكبرات الصوت، وكان د. فاروق في استقبالنا جزاه الله خيرًا.

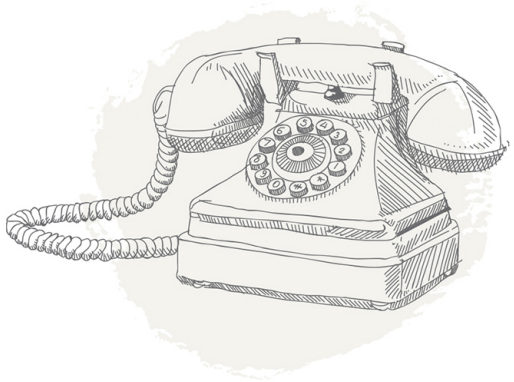

بدأنا نتباحث عن أفضل السبل للدخول إلى أفراد الجالية المسلمة المبعثرة في أطراف المدينة.

عمد الإخوة الكرام إلى فكرة إبداعية كانت وسيلة ذكية للوصول إلى أكبر عدد من المسلمين، لقد أخذ كل منهم نسخة من سجل الهواتف لمدينة قراند رابدز، وبدؤوا البحث عن كل اسم يبدو أنه لمسلم، لم يكن في تلك الأيام إنترنت أو جوالات، ولدى الاتصال بأصحاب تلك الأرقام كان هناك من رحب بهم وباتصالهم، وكان هناك من أغلق الهاتف في وجوههم، وكان هناك من دعاهم لزيارته، لكنهم ما وهنوا وما استكانوا، فقد كان شعارهم: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (يس:21)؛ وانطلقت قافلة الدعوة إلى كثير من أحياء المنطقة؛ فكانت كالغيث أينما حلت أمطرت بالخير والهدى والصلاح، وكانت لنا مفاجأة ذكرتنا بـ"لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا".

بينما كنت جالس في بيتي إذا ببناتي الصغيرات ينادين بأعلى صوت: المسلمون قادمون ..

منها قصص جميلة ورائعة، ومنها ما هي محزنة مؤلمة، أما الجميل منها فكانت لرجل مسلم أمريكي أسود، فبينما كنت أستقبل الاتصالات على هاتف المسجد الذي كنا نتصل منه، بعد أن ذهب الزملاء للدعوة الميدانية وزيارة بعض العناوين التي أخذوها من سجل الهاتف، إذا بهم يدخلون المسجد ومعهم رجل أمريكي أسود، وإذا به يبكي بكاءً شديدًا، ويظهر فيه أسىً وتحسر صادق، فدهشنا لِما رأينا برهة، سألتهم: ما الخبر؟!

قالوا: هو يخبرك بإذن الله، فما إن هدأت عبرته ومسح دموعه حتى أخبرني بما حدث، يقول: بينما أنا جالس في بيتي إذا ببناتي الصغيرات ينادين بأعلى صوت: "المسلمون قادمون.. المسلمون قادمون"؛ فنظرت من النافذة، فإذا بمجموعة من الرجال بثيابهم البيض ووجوههم المشرقة ولحاهم الجميلة؛ حتى ظننت من الفرح أنهم الملائكة، فانطلقنا نحو الباب ورحبنا بهم، وحلقنا حولهم فرحين منبهرين، فمن سنوات لم يزرنا أحد من المسلمين.

لقد ذكرونا بالله والصلاة والحفاظ على الدين، أدخلوا السعادة في قلوبنا، ونشطوا الديانة في أعماقنا، لقد شعرنا بالحياة مرة أخرى، فها أنا ذا أرافقهم لأتعرف على المسجد، وأعاهد الله ثم أعاهدكم أن أبذل كل مافي طاقتي للعمل لهذا الدين، وأن أستغل كل صِلاتي لملء هذا المسجد بالمسلمين والمسلمات الذين غفلوا عن دينهم وغرتهم الحياة الدنيا وزينتها، لقد أتيتم من بعيد، وأنا المقصر الكسول عن بذل الجهد لدعوة المسلمين وجمع كلمتهم.

كانت فرحتي عظيمة وأنا أسمع هذ العبارات الصادقة من رجل ذي همة عالية، وأنا أقول في داخلي: لله دركم من رجال باعوا حياتهم لله، ضحوا بأوقاتهم ومالهم وأسرهم من أجل الله، وتطلعوا لنيل شرف الدعوة في قول ربهم عز وجل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: 33).

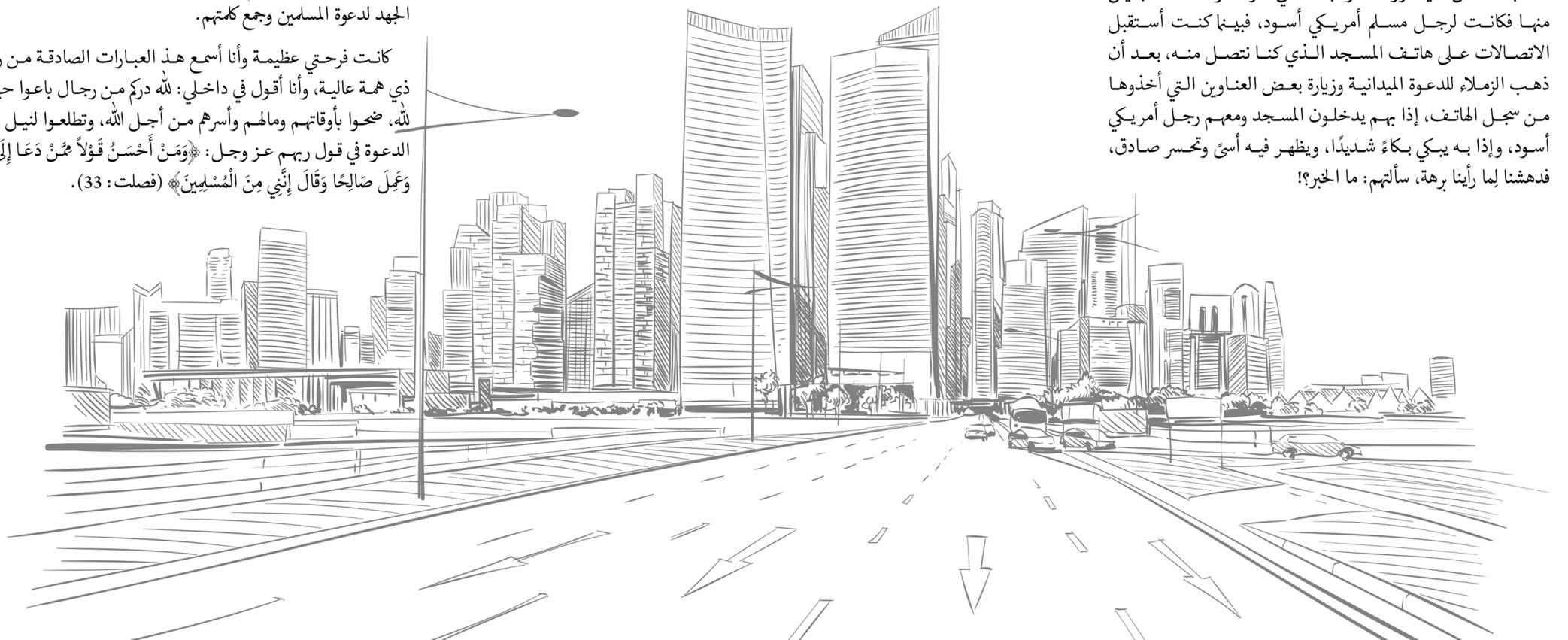

هذا الرجل لم يكن يعرف الوضوء ولا الصلاة، إنما كان يعرف فقط أنه كان من أسرة مسلمة

وأما إحدى القصص المحزنة، فقد كانت لرجل بلغ من الكبر عتيًا، كان قد هاجر إلى هذه المدينة قبل أكثر من أربعين عامًا بعد نكبة فلسطين، وبعد أن حددنا منزله وتواصلنا معه لزيارته وصلنا منزله، وقد كان في حي راقٍ في أطراف المدينة؛ رأينا رجلا كئيبًا حزينًا جاثمًا على كرسيه يحملق في القادمين والسائرين، وما إن رآنا قادمين إليه حتى تغيرت قسمات وجهه وتهللت هيئته وارتسمت على محياه بسمة حزينة، وكأنه لم يعرف الابتسامة منذ زمن طويل.

لم يكن هناك من يخدمه أو يعينه على تقديم شيء للضيوف، وما إن جلسنا حتى اغرورقت عيناه بالدموع، وبدون مقدمات بدأ يسرد علينا قصته الحزينة:

أتيت لهذه الديار وأنا شاب متطلع للحياة، وبدأت العمل حتى كونت تجارتي، ثم تزوجت بامرأة أمريكية ورزقت منها بابنين وبنت، تربوا حياة أمريكية وما إن كبروا وأصبحوا شبابًا حتى تركوني وحيدًا، وكذلك فعلت الأم، وها أنا ذا أعيش غربتين، غربة الديار والأهل الذين قطعت صلتي بهم من أجل هذه المرأة، وغربة عقوق

الأبناء، قصتي مكررة مع كثير ممن أتوا إلى هذه البلاد رغبة في حياة كريمة وحلم يتحقق، ولكننا عندما بعدنا عن ديننا وانغمسنا في متع الحياة وزخرف الحضارة الأمريكية في مقتبل أعمارنا حصدنا البؤس والشقاء والوحدة والنكران.

لقد كانت قصة مؤلمة أثرت في أنفسنا، وأشعرتنا بفضل الله علينا، هذا الرجل لم يكن يعرف الوضوء ولا الصلاة، إنما كان يعرف فقط أنه كان من أسرة مسلمة، لقد أنقذه الله بهؤلاء الرجال الذين تركوا أبناءهم وأسرهم وملذاتهم ودفعوا من وقتهم ومالهم وجهدهم؛ ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (الإنسان: 9)، هم فقط يريدون الهداية للبشرية، والعودة لرب البرية، حيث السعادة الحقيقية.

بدأ هذا العجوز المحزون حياة جديدة وعودة إلى الله، وما يدريك أن هؤلاء قد أرسلهم الله رحمة له لتخفيف أحزانه، وإعانته ليعود إلى ربه وخالقه، بعد أن جفاه الأبناء وهجرته الزوجة، وقلبت له الحياة الأمريكية التي كان يحلم بها ظهر المجن.

إنّ الحديث عن هذه الرحلة الموفقة مع أولئك القدوات الكرام لذو شجون، أسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء، ويتقبل منا ومنهم، وأن يجمعنا بهم في ظل عرشه.

ولمّا إن جاء موعد صلاة الظهر من يوم الأحد إذا بأعداد المسلمين في تلك المدينة قد بدأت تتقاطر على المسجد، بفضل الله، ثم بفضل هؤلاء الدعاة الذين بذلوا كل ما يستطيعون لدعوة إخوانهموأخواتهم المسلمين للعودة إلى الله وعمارة بيت الله.

كان مشهد الصلاة مهيبًا، فقد كان المسجد خاويًا فارغًا من قبل، أما الآن فيكاد يمتلئ بالمصلين.

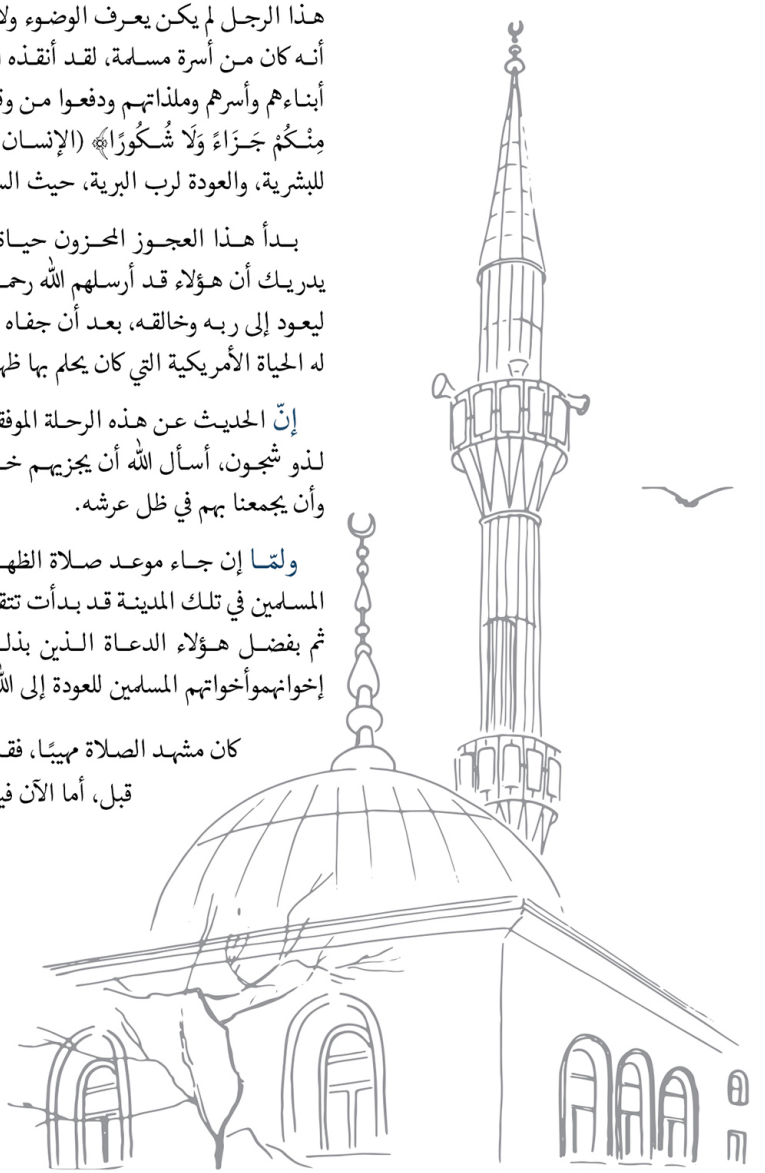

كان مشهد الصلاة مهيباً، وجموع المصلين تملئ المسجد..

ومن الأمور المكتشفة أن كثيرًا من المسلمات اللاتي أتين إلى المسجد إجابة لداعي الله لم يكنّ يعرفن الحجاب، وكان أحد الإخوة قد جلب معه أقمشة وقام بتوزيعه عليهن، وتعليمهن شروط الصلاة والوضوء، وغيرها من أمور الدين.

هنا تذكرت كلمات يوسف سليمان وهو يقول: يا أخ عبد الله، ما يدريك، لعل الله يجعل على أيدينا هداية مسلمي تلك المدينة، الذين غرتهم الحياة الدنيا وبعدوا عن الله، ويكون هذا المسجد منارة لجمع كلمة المسلمين في مدينة قراند رابدز.

وكان هناك اجتماع قبيل المغادرة، وبقي ما يقارب دولارًا واحدًا من ميزانية الرحلة التي ساهم فيها الجميع دون الاعتماد على أحد، فاشترى به أحد الإخوة قالبًا من الشوكولاتة، وبدأ في تقطيعها إلى خمس قطع صغيرة، وأخذ كل منا واحدة، نعم، لقد كانت نهاية الرحلة أجمل وألذ من طعم قطعة الشوكولاتة الصغيرة التي ما زال أثر طعمها في فؤادي ولذتها على لساني حتى هذا اليوم.

لا تدري لعل جهدًا بسيطًا يبارك الله فيه.

ما ستقرؤونه ليس من الخيال، ولولا أنني سمعت هذه القصة مباشرة من بطلها لربما راودني كثير من الشك حول صحة أحداثها.

لقد كانت رحلة مع الأمل تحطمت خلالها كل عوائق اليأس، إنها قصة نجاح الإيمان والعزيمة الصادقة، بدأت أولى فصولها في الولايات المتحدة الأمريكية، وما زالت تدور أحداثها في أبها حتى كتابة هذه الأسطر.

عظمة والد مشفق وطموح فتاة مكفوفة..!

وما يُدريك ...

كانت فرحة الأبوين لا توصف بقدوم مولودة كالقمر، أزاحت عنهما وحشة الغربة وعناء الانتظار، أدخلت السعادة إلى بيتهما، وعوضت فراق الوطن والأهل، حيث كان الوالد مبتعثا للدراسة، وكان يتمثل قول خير الدين الزركلي في وصفه حرقة البعد عن الوطن والأهل:

العينُ بعدَ فِراقِها الوَطَنا ... لا ساكِنًا ألِفَت ولا سَكَنا

رَيَّانَةٌ بالدَّمع أقلقَها ... ألا تُحسَّ كرًى ولا وَسَنا

كانت تَرى في كلِّ سانحةٍ ... حُسنًا وباتَت لا تَرى حَسَنا

والقلبُ لولا أنَّةٌ صَعِدَت ... أنكَرتُه وشَكَكتُ فيه أنا

ليتَ الذينَ أحبُّهم علِموا ... وهمُ هنالكَ ما لقيتُ هنا

ما كنتُ أحسَبُني مُفارقَهم ... حتَّى تفارقَ روحيَ البدنا

وأحبَّةً أسرَرتُ من كَلَفي ... وهَوايَ فيهِم لاعِجًا كَمَنا

كم ذا أُغالبُه ويغلِبُني ... دَمعٌ إذا كَفكَفتُه هَتَنا

لي ذكرياتٌ في رُبوعِهِم ... هُنَّ الحياةُ تألُّقًا وسَنا

إنَّ الغريبَ معذَّبٌ أبدًا ... إن حلَّ لم ينعَم وإن ظَعَنا

لكن الفرحة والبهجة بمقدم المولودة تبددت، والأماني تبدلت؛ فقد كانت المولودة فاقدة البصر، نعم لقد كانت مكفوفة، خبرٌ خرّ كالصاعقة على هذه الأسرة المكلومة ..!

تبددت آمالها، وزادت معاناتها، وتراكمت هموم الغربة عليها، اعتزل الوالد الناس، وأصيب بالإحباط والكآبة، والأم المكلومة فجعت بحال ابنتها.

لكن بصيص الأمل والرجاء لم تخُب جذوته، فما إن سمع الوالد بوجود استشاري عيون متميز في ولاية فلوريدا - حيث تمت معالجة حالات مشابهة على يديه - حتى شد الرحل إليه، لعل الله يعيد لهذه الطفلة المسكينة بصرها، ويعيد للوالدين فرحتهما، لكن المفاجأة الأخرى والصدمة الكبرى قد أتت، لا يوجد برء لحالة هذه الطفلة؛ فحالتها حسب رأي الطبيب الاستشاري ميئوس من شفائها، وستبقى طَوَال حياتها مكفوفة.

"إنا لله وإنا إليه راجعون" تكسرت مجاديف الآمال وانقطع الرجاء بالجميع إلا بك يا إلهي، عادت الأسرة أدراجها إلى مقر دراسة الوالد تجر أذيال الخيبة والحسرة والألم.

دخل الأب في عزلة موحشة حتى فقده إخوانه في مسجد المدينة التي يسكنها، والذي كان يداوم على الصلاة فيه، سألوا عنه، عرفوا عن عزلته، زاره إمام المسجد، رثى لحالته، وأوجعه تألمه وانكساره، كان هذا الإمام من الأمريكان الذين اعتنقوا الإسلام، ويعمل طبيبًا، ومن شدة ولعه بالدعوة إلى الله كان يأخذ إجازة أسبوع من كل شهر يتفرغ فيه للدعوة إلى الله تعالى..!

في مثل هذه المواقف تتجلى الأخوة الإيمانية الصادقة، وخاصة عند ابتعاد المبتعث عن أهله وأقربائه ووطنه، غريب الوجه واللسان، وخاصة في مجتمع مادي لا يُلقي بالاً لأحد، فكُلٌّ واحد وشأنه.

يقول الوالد: بفضل الله، ثم بعون إخواني في الله، ومساندة زوجتي، بدأت أستفيق من تلك الصدمة المؤلمة، مؤمنًا بقضاء الله ومؤملا في فضله، فله الأمر من قبل ومن بعد، متذكرًا ومتأملاً: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء: 19)، عدت إلى أسرتي بأمل عظيم وصبر جميل، وهمي الكبير تجاه ابنتي الصغيرة تحول إلى أملٍ كبيرٍ، ورجاء طيب.

كبرت ابنتي المكفوفة، وكبر معها رحمتي واهتمامي بها، كانت لنا قرة عين ومصدر سعادة، دخلت الروضة، وبعدها المراحل الابتدائية الأولى، وعلى الرغم من أنها كانت في بيئة غريبة بلغة غير لغتها الأم، إلا أنها كانت متفوقة دائمًا، وخاصة مع وجود الإمكانيات والرعاية الجيدة للعناية بالمكفوفين.

وعند اقتراب انتهاء البعثة، حزمت الأسرة حقائبها وتجهزت للعودة إلى ديارها، فكل غريب عن وطنه لا بد أن يعود، وهنا بدأت نقطة تحول كبيرة في حياة الأسرة وحياة الطفلة المكفوفة؛ فقد اعتادت على وجود تسهيلات كبيرة للمكفوفين، وكوادر مدربة، وبيئة تعليمية جذابة، لقد تغير الوضع، فلم تكن في ذلك الوقت مدرسة متخصصة للمكفوفات في المنطقة الجنوبية، وهذه عقبة كبيرة تجاه إكمال هذه الفتاة تعلمها.

استشعر إمام المسجد واجبه الإيماني تجاه هذه الأسرة المصابة غريبة الدار؛ فعزم على بذل كل جهد ممكن لانتشال هذا الأب المكلوم من عزلته وإخراجه من محنته، وإعانة تلك الأم المفجوعة البعيدة عمن يواسيها، فلا بد من الرضا بقضاء الله سبحانه؛ فهو لا يقضي إلا بخير؛ فما يدريك؟ لعل هذه الفتاة العمياء تكون نورًا وخيرًا ومصدر سعادة لأسرتها وأبويها، وربما لمجتمعها، ما يدريك؟ لعل الله أن ييسر لها العسير، ويعلي من شأنها، وينفع بها ..!

مساهمة إمام المسجد في إخراجي من عزلتي، وكشف حالة الاكتئاب التي سجنتني، أشعرني بالأخوة الإسلامية الحقيقية.

تواصل إمام المسجد بصديق له من أصل مصري في بلدة تبعد أكثر من أربع ساعات بالسيارة، وقد كان طبيبًا نفسيًا حاذقًا، ورجلًا مؤمنًا، ولعلمه بتأثير الإحباط وحالة الاكتئاب الحادة التي أصيب بها الأب المكلوم، فقد بذل الجهد الكبير لإقناعه بالتداوي وأهمية اجتياز هذه المرحلة الحرجة، لعل الله يحدث أمرًا، فقبل الوالد على مضض، وتم ترتيب زيارة الطبيب النفسي في تلك المدينة البعيدة.

يقول الوالد المكلوم: "ساهم إمام المسجد - جزاه الله خيرًا - في إخراجي من عزلتي، وكشف حالة الاكتئاب التي سجنتني، أشعرني وجماعة المسجد بالأخوة الإسلامية الحقيقية، فلم يكن يجمعنا بهم إلا الإسلام".

تحدد موعد السفر للطبيب النفسي في المدينة البعيدة، وقابلهم الطبيب بحفاوة كبيرة ورحب بهم، لقد كان سعيدًا كثيرًا بخدمة أخيه، ودراسة حالته، ومساعدته في الخروج من نفق الاكتئاب واليأس.

وبعد لقاء مطول حل فيه الوالد ضيفًا على الطبيب المبارك؛ تحسنت حالته بفضل الله، وعادت إليه عافيته، بدأت نظرته للأمر تتغير، وبدأ في تقبل حالة ابنته برضا بما قسم الله، وإيمانًا بأن كل ما يقدره الله خير .. ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (البقرة: 216).

لم يقف الوالد المتفائل عاجزًا أمام هذه المعضلة، بل طرق كل الأبواب، وتواصل مع كثير من المسؤولين، وبحث عن الأسر التي لديها فتيات مكفوفات، وشحذ هممها.

وسلك الوالد طريقة إبداعية في جمع أكبر عدد من أسماء البنات المكفوفات، اللاتي حرمن التعلم بسبب عدم توافر معهد متخصص للمكفوفين في المنطقة، وقام بعمل إعلانات تم تعليقها على أبواب المساجد الكبيرة في معظم محافظات منطقة عسير، يناشد الأسر التي لديها بنات مكفوفات ويرغبن في فتح معهد لتعليمهن، ووضع رقم هاتفه ورقم البيجر للتواصل معه، فلم تكن في ذلك الوقت جوالات.

نجحت فكرته بحول الله وقوته، ثم بجهده المبارك، وتقاطرت الاتصالات، وتم تسجيل قائمة بأسماء الفتيات المكفوفات، ليخوض الوالد مرحلة جديدة من الكفاح؛ من أجل افتتاح معهد متخصص في تعليم المكفوفات في منطقة عسير.

وخلال فترة وجيزة تحقق الحلم، وبزغ بريق الأمل، وتم افتتاح معهد متخصص، وإيجاد كوادر متخصصة للعمل به، وهنا بدأت مرحلة تحدٍّ جديدة للأسرة وللفتاة المكفوفة، بيئة جديدة جديدة محدودة الإمكانيات، وكوادر ذات خبرة قليلة، وكان فوق ذلك كله اختلاف اللغة، لكن العزيمة الصادقة والدعم الأسري القوي والأمل الكبير في الله عز وجل، كانت عوامل أساسية في نجاح تجربة جديدة، ومضت السنون يحدو الأسرة الأمل في أن تكون ابنتهم المكفوفة ذات شأن، لا تدري بأن كثيرًا من عباقرة العالم كانوا من ذوي الاحتياجات الخاصة ..!

وبعد سنين عديدة من الجهد والمثابرة والآمال الكبيرة، تخرجت الفتاة المكفوفة من الثانوية بنسبة عالية، وحققت معدلات مرتفعة في الاختبارات الوطنية، القياس والتحصيلي، وجاءت مرحلة جديدة وتحديات جديدة أيضًا، فلم يتيسر لها القبول إلا في جامعة الملك سعود في الرياض، وأهلها في جنوب المملكة.

همتها العالية، وعزيمتها القوية، واهتمام والديها، واستعدادهما للتضحي من أجل سعادتها وارتقائها، وقبل ذلك توفيق الله وحده، كان جميعها حافزًا للصبر والمثابرة، بدأت دراستها في مجال التربية الخاصة، وسكنت في سكن طالبات الجامعة، وكانت تواجه كثيرًا من العقبات بسبب إعاقتها، ولكن الإعاقة الحقيقية إعاقة الهمة وذبول الطموح.

بدأت مسيرتها الدراسية، وكان أبواها يقدمان إلى الرياض أسبوعيًا؛ للاطمئنان عليها، ومؤانستها، والترويح عن نفسها في الغربة، وتقوم الوالدة الوفية بقضاء حاجياتها التي لا تستطيع فعلها بنفسها، وبقوا على ذلك المنوال عدة سنوات، حتى تخرجت بتفوق بفضل الله، ثم بمثابرتها ودعوة والديها.

وهنا ينبغي أن نقف برهة من الوقت؛ للتأمل ومقارنة حالها بحال الكثيرين والكثيرات الذين يملكون مقومات النجاح، ولا ينقصهم الصحة ولا الدعم الأسري، ولكن - بكل أسف - يضيعون أنفسهم ويبددون أعمارهم في سفاسف الأمور..!

ومن هنا بدأت رحلة جديدة في حياة الخريجة المكفوفة، ولكن ما يدريك؛ فالله غالب على أمره، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرًا..

وما هي إلا أيام وتعود إلى أهلها، وييسر الله لها العمل في المعهد لذي تخرجت فيه، فتعود لتكمل الكفاح وتسهم في رعاية المكفوفات، ولكن بتجربة جديدة، وقدوة حسنة، ومثال يقتدى به، وتجربة نجاح ملهِمة، تجعلهن يتغلبن على إعاقتهن، كل ذلك تحت ناظري والديها، اللذين رأيا فيها رغم إعاقتها البصرية بصيرة في الحياة، وإيمانًا وثباتًا، وثقة بأن قضاء الله كله خير.

وتمر الأيام، ويبدأ الوالد المهتم بالتفكير في جانب آخر يحتاجه كل إنسان، ويهتم به كل والد حريص، ألا وهو أن يجد لها زوجًا صالحًا، لعل الله يرزقها ذرية صالحة، ترعاها عند كبرها، وتسليها في حياتها.

بعزيمة لا تَكِلّ وثقة في الله لا تضعف بدأ الوالد في البحث عن زوج مناسب لابنته المكفوفة، وتم ذلك بالتواصل مع مجموعة من الثقات في مناطق مختلفة، لترشيح زوج يخاف الله، ويقبل بالزواج من هذه الفتاة، وتمر الأيام والأشهر والوالد لم يفتر ولم ييأس..

وفي مساء أحد الأيام يأتي اتصال من أحد الشباب من منطقة ليس ببعيدة، مبديًا رغبته في الزواج منها، ويخبره الولد بأنها مكفوفة، فلم يمانع، وأحب الوالد أن يتعرف على الشاب، ويدرس مصداقية رغبته بالزواج،

وجدية تقدمه، وحدد موعدًا قدم فيه الشاب ومعه أحد أقربائه إلى منزل الوالد في أبها.

يقول الوالد: "وجدته شابًا لطيفًا من أسرة طيبة، وسألته: لماذا تريد أن تتزوج مكفوفة؟، فذكر أنه يرغب في الزواج، وليس لديه القدرة المالية لتحمل كثير من أعباء الزواج، ولعل الله يجعل له في هذا الزواج باب خير، وبعد أن تعرف الوالد على جدية الشاب، كان لا بد من النظرة لشرعية ليتحقق الرضا بين الطرفين. قابل الخاطب خطيبته ورآها، ولكنها لا تستطيع أن تراه، فقام الوالد المشفق والمحب لابنته الخير بعمل أمر عفوي عاتبته عليه فيما بعدُ، فقد أخذ يدها ووضعها على يد الخطيب دون إذنها، وكان عتابها لوالدها: "كيف ألمس رجلًا لا يحل لي؟"، هنيئاً لها هذا التقوى والورع.

> هنيئًا لهذه الفتاة هذا التقوى والورع في لحظة خطبتها..

وبعد أن قَبِل الطرفان هذ الزواج، تحدث الوالد مع الشاب حول الزواج والسكن والمهر، فقال الشاب: "والله إنني لا أملك من حطام الدنيا شيئًا، تخرجت من الثانوية ولم أجد عملًا، ولا أملك شيئًا".

وكان جدّ الفتاة حياً يرزق، ومن أسرة تهتم بالنسب وتتمسك بالعادات والأعراف القبلية، فما كان من الوالد إلا أن قال: سيكون المهر أربعين ألفًا، ولكنك لن تدفع منه شيئًا، وهذه خمسةَ عشرَ ألف ريال، خمسةٌ تدبر بها أمورك، وعشرةٌ تقدم بها علينا وتقدمها قدمة للوالد الجد، ويتم العقد بإذن الله.

وهنا تساءل الوالد عن السكن، فرد الشاب الخاطب بأنه لا يملك بيتًا، فما كان من الوالد إلا أن قابل الرد بابتسامة تعجب، هذا يريد الزواج ولا يملك مهرًا ولا بيتًا، سبحان الله! ولكن.. ما يدريك؟ لعل الله يريد أمرًا لا تعلمه.

هنا رد الوالد: "السكن موجود. هناك ملحق بالمنزل، سنقوم بإعادة ترتيبه؛ ليكون سكنًا لكما"؛ فكاد الشاب يطير من الفرح، وكان يردد في نفسه كيف يسر الله له كل هذه الأمور وبهذه السرعة، إنه أمر أقرب إلى الخيال. نعم؛ لقد أبلغتكم آنفا أنها قصة أقرب للخيال.

وبدأت مراسم الزواج، وتهيأ سكن العروسين في منزل الوالد، وشعر الوالد أنه حقق لابنته هدفًا آخر بفضل الله، لعل الله يرزقها ذرية صالحة، واستقرارًا أسريًا، يشعرها بذاتها، ويزيد ثقتها بالله، ويقوّي عزيمتها، وأنها لا تنقص في شيء عن أخواتها المبصرات، بل ربما فاقتهن في كثير من الأمور.

يقول الوالد: كان الشاب يتعامل معي بأدب جم، وشعور كبير بالامتنان، وأصبح واحدًا من أبنائي، بل كان هو أشد احترامًا وتقديرًا ورغبة في إرضائي، لكنه كان يشعر بالحرج نوعًا ما؛ لأنه ليس الذي يرعى بيته ويصرف على أسرته.

وفي أحد الأيام جاءني وذكر لي أنه تقدم لوظيفة في إحدى الدوائر الحكومية، فأخذت بيده وذهبنا إلى مدير تلك الدائرة، وكان رجلًا فاضلًا، وذكرت له حال الولد، وحاجته إلى عمل يحفظ به ماء وجهه، فما كان منه إلا أن اعتذر؛ لصعوبة ذلك؛ لأن الترشيح لا بد أن يتم وفقًا لضوابط وزارة الخدمة المدنية، ولكنه اقترح التوجه لوكيل تلك الوزارة لعل الله يسهل له الأمر، فما كان منا إلا أن حزمنا أمتعتنا وتوجهنا لمقر الوزارة في الرياض، دون موعد مسبق، ولا سابق تنسيق.

طلبت مقابلة وكيل تلك الوزارة، فما كان من مدير المكتب إلا أن أبدى اعتذاره، لانشغال الوكيل، ولأنه ليس لدي

موعد سابق، فما كان مني إلا أن ذكرت له بعد المسافة وأهمية مقابلته، ولكنه كرر اعتذار الوكيل عن مقابلتي ذلك اليوم، فطلبت منه أن يخبر الوكيل أني لن آخذ من وقته أكثر من عشر دقائق، وأنني لن أغادر المكتب ولو بقيت إلى الليل، وأن الأمر مهم جدًا، فلما رأى الوكيل إصراري سمح لي بالدخول.

أخبره الوالد بالقصة من أولها، ثم استأذنه بأن يدخل الشاب عليه ليراه ويتعرف عليه وأن يغادر هو المكتب.

يقول الوالد: فما إن سمع وكيل الوزارة القصة حتى انهمر الدمع من عينيه، وتأثر كثيرًا، ثم وعد بأن يسهل الأمر بكل ما يستطيع، ثم وجّه الإدارة العامة لشؤون الموظفين إلى إصدار قرار بـ"سلخ" إحدى وظائف الوزارة في أبها، وتعيين الشاب عليها، وأن يعمد الفرع بتمكينه من المباشرة والعمل.

أمر لا يكاد يصدق! ولكن من صدق لله صدقه، ولله في خلقه شؤون، يفعل ما يشاء ولا راد لفضله، ﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (غافر: 68)، نعم.. إنه أمر أشبه بالحلم منه إلى الحقيقة، وتوجه الأب والشاب إلى مدير عام شؤون الموظفين، الذي ذهل من صيغة التوجيه التي قد تتعارض مع آلية التوظيف، ونظر إلى الوالد باستغراب، فقال له: لا تستغرب، وأخبره بالقصة، فما كان من عينيه إلا أن اغرورقتا بالدموع، وشرع في إنهاء الإجراءات تلك بروح طيبة، ثم سلم خطاب التعيين لهما يدويًا.

ذَهَبَا إلى أبها، وكان استغراب إدارة شؤون الموظفين في الفرع أشد، وبعد مماطلة قاربت الشهر اضطر الوالد للتحدث مع مدير عام شؤون الموظفين في الوزارة، وما هي إلا أقل من ساعة حتى تم تعيين الشاب، وتسجيل مباشرته بأثر رجعي من تاريخ صدور القرار من الوزارة، وبدأ رحلة جديدة في حياة تلك الأسرة الصغيرة.

وتمر الأيام، وتهنأ الفتاة المكفوفة ببيتها الجديد، وزوجها الطيب، ووالديها الحنونين.

لكن شيئًا ما جعل الزوجين يطلبان مقابلة الوالد في أمر هام، وبموعد مسبق على غير العادة، ويبدو أن في الأمر موضوعًا مهمًا.

يقول الوالد: قدما إلي، وطلبا الحديث معي حول أمر هام، وقلت: "عسى خير إن شاء الله"، وبعد أن جلسا أمامي، طأطأ الرجل رأسه ولم ينبس بكلمة واحدة، طلبت منه أن يتحدث، فتردد ولم يقل كلمة واحدة، وكانت ابنتي جالسة إلى جانبه، فقالت له: تحدث ما بك؟، ولاحظت أن عينيها قد اغرورقتا بالدموع، فعلمت أن هناك أمرًا مهماً، وأخبرتهما بأني سأغادر الغرفة وأعود بعد نصف ساعة، خلالها قد يكون الحال مناسبًا للتحدث معي وإبلاغي بما يرغبان.

وبعد أن عدت كان الرجل لايزال مترددًا، ولكن ابنتي شجعته على الحديث والدموع قد ملأت عينيها، فقلت: يا ولدي تحدث، ما بك؟ قال بعد تلعثم وتردد: "يا عمي أريد أن أتزوج بزوجة ثانية".

لم يكن الأب يتوقع هذ الطلب من الرجل لذي زوجه واحتضنه، وبحث له عن عمل، وأسكنه في جوار منزله، لكن حنكة الوالد وبُعد نظرته واهتمامه بشأن ابنته يتعدى التفكير العاطفي الساذج، فما كان منه إلا أن رد قائلًا: "هذا حقك شرعًا يا بني، أن تتزوج بأربع وليس بواحدة"، فما كان من البنت إلا أن تهلل وجهها، وقامت بتقبيل يد والدها، وكذلك فعل الرجل وهو لا يكاد يصدق ما سمعه ورأته عيناه، فلم يكونا يتوقعان منه هذ الرد، فقد تردد عدة أيام في إخبار الوالد به؛ خوفًا من ردة فعله.

يعي الوالد أن مصلحة ابنته أولى، وما يريده لله دائمًا فيه الخير، فما يدريك؟!

عارض بعض الأقرباء هذه الخطوة من رجل أكرمه عمه وزوجه وأسكنه بيته، وساعده في الحصول على وظيفته، وإذ به الآن يكافئ هذ العم حسب رأيهم بأن يتزوج على ابنته، كل هذا لم يغير توجه الوالد، فقد مرَّ بتحديات كثيرة لمصلحة هذه البنت المكفوفة زادت من ثقته بالله.

طلب الوالد من نسيبه أن يبلغه بموعد زواجه بالزوجة الثانية، ليحاول أن يحضر ويشارك في مناسبة الزواج، وبعد أن عرف الوالد موعد الزواج - وقد كان في مدينة تبعد ساعتين بالسيارة تقريبًا - سافر، وحضر حفل الزواج، واستُقبل استقبالاً حافلًا، وبترحيب مبجل، كما قدم الوالد هدية ثمينة ورفدة قيمة للعريس، وتمنى له كل خير، وقد كان الرجل في غاية الحرج والخجل من وفاء هذ الصهر الشهم، وتعامله الراقي، وسماحته الفريدة، وما إن عاد الوالد إلى البيت حتى

لقد كانت هذه الفتاة الصغيرة المكفوفة التي كاد قلبا والديها أن يتقطعا رحمة لها سببًا في سعادة كثير من الناس، وباب خير للكثير

حتى قابلته ابنته وهي سعيدة، تخبره بأن زوجة زوجها الثانية قد اتصلت بها، وأخبرتها برغبتها في مقابلتها، وأنها ستكون لها أقرب من أختها، وستسعى بكل جهد في أن تسعدها وتحسن صحبتها. نعم، هي قصة عجيبة، ولكن ما يدريك؟ فقد نكْرَهُ شيئًا ويكون فيه خير كثير. والأعجب من ذلك أن الوالد قد حاول تسهيل قبول ضرة ابنته في إحدى الكليات من خلال الشفاعة الحسنة.

هذه قصة واقعية، ليست من وحي الخيال، وكثير من فصولها لم أسردها، تحسبًا تحسبًا لرغبة أطرافها. لقد كانت هذه الفتاة الصغيرة المكفوفة التي كاد قلبا والديها يتقطعان رحمة لها سببًا في سعادة كثير من الناس، وباب خير للكثير، فلا تحزن من قضاء يقضيه الله لك، فما يدريك...

ما أسرده عليكم هي قصة في غاية الغرابة، يتجلى فيها حسن تدبير الرب سبحانه، وتوفيقه للخير وإن خالف رغباتنا، فما يدريك أن أمرًا كرهته سيكون الخير في ثناياه، وما يدرك أن الخبير العليم صرفك عن أمر أحببته كان فيه هلاكك.

بطل هذه القصة اسمه "فيليب كلارك"، من أسرة إنجليزية عريقة، ولد ونشأ في قلب العاصمة البريطانية "لندن"، فهي بالنسبة له بلدته التي ترعرع فيها، يعرف تفاصيل أحيائها وأنهارها وحدائقها وتاريخها وثقافتها وقطاراتها وحافلاتها.

من لندن إلى ينكاري

وما يُدريك ...

كان يعشقها؛ فقد كانت كل الدنيا بالنسبة له، قابلته في نهاية عام 2000 م، عندما كنت في مهمة علمية في جامعة أوكسفورد، حيث استضافتني الجامعة على منحة زمالة الإمام البخاري للباحثين المسلمين.

جمعني الله بفيليب بلا موعد سابق في أحد مساجد لندن بحي "بارسن قرين". وأذكر أنني قد رأيته في مطار جدة قبل إقلاع طائرتنا إلى لندن، ولم ألق له بالاً بين عشرات الركاب، ولم يخطر في مخيلتي أني سأقابله في لندن ويصبح واحدًا من أصدقاء العمر.

وبينما توجهت لأداء صلاة الفجر جماعة في مسجد "بارسن قرين"، إذا بذلك الفتى الإنكليزي أشقر الشعر أزرق العينين الذي لمحته في قاعة الإقلاع في مطار الملك عبد العزيز في جدة.

لم يخطر ببالي ابدًا أنه مسلم، بل ومغادر إلى بلاده بعد أن أنعم الله عليه بأداء مناسك الحج. بعد الصلاة تبادلنا الابتسامات وحال كل منا يقول: أنت من رأيته في المطار؟!! وها قد جمعنا الله في بيته في لندن، تبادلنا التحية وتعرفنا على بعضنا ورحب بي في لندن، وأصر أن

نتقابل نهاية كل أسبوع؛ لنطوف بلندن، ويعرفني على معالمها، ولنزور مساجدها، وربما التحدث فيها.

وكان ذلك - بفضل الله -، فقد كان يعرف لندن كما يعرف أحدنا داره، فكنا نصلي الصلوات جماعة في مسجد من مساجدها.

لقد وجدنا بيننا قواسم مشتركة كثيرة، أعظمها بلا شك أخوة الإسلام، وأحدها علاقتنا بالقارة السمراء، وخاصة نيجيريا.

وهذا ما جعلني أسرد رحلته العجيبة للمجهول، والتي قادته لتوحيد الله..

يقول فيليب: بعد أن أنهيت الجامعة كنت مهتماً بالحضارة الآسيوية والبوذية منها على وجه الخصوص، وكنت أتوق للسفر والعيش في تايلاند، وقد حدثت نفسي بالتعرف على الديانة البوذية التي كنت أتوق لسبر أغوارها، واللغة التايلاندية التي كنت أرغب في تعلمها، وهذا أمر يحبه كثير من الشباب الإنجليز التواقين للمغامرة واكتشاف الثقافات الأخرى.

وبهذا تقدمت للعمل في عدة جهات لها علاقات خارجية، وكنت من ضمن كثير من المتقدمين للعمل في دول مختلفة حول

وبعد أن تقدمت بالطلب وإبداء الرغبة في العمل في تايلاند، جاءت المفاجأة، بأن تم توجيهي للعمل في شمال نيجيريا في حالة رغبتي، وأن هذا هو مكان العمل المتاح حالياً، فأصبت بخيبة أمل كبيرة وإحباط شديد. وبعد أيام من التفكير والمشاورة عقدت العزم على خوض التجربة، فما يضرني؟، إن لم يناسبني الوضع فسأعود إلى بلدي.

لقد كانت مهمتي هي العمل كمراقب؛ لحماية واحدة من أكبر المحميات في العالم بشمال نيجيريا، تسمى "حديقة ينكاري الوطنية"، في وسط شمال نيجيريا، بين كانو وزاريا وجوس.

وكان المشروع تموّله إحدى منظمات المجتمع المدني المتخصصة في الحفاظ على البيئة. تبددت تطلعاتي التي كنت أعول عليها منذ زمن طويل.

هجرت الكنيسة، وفقدت الأمل في مصداقية طقوسها واعتقاداتها، فقد كنت على يقين أنها تتعارض مع العقل السليم

ورغم خيبة الأمل بسبب فوات الفرصة للعمل في تايلاند والتعرف على البوذية عن قرب كان لروح المغامرة ونبل العمل في ينكاري سلوة عما حصل في تغيير لوجهتي، ورددت في داخلي: "وما يدريك يا فيليب؟ قد يكون هذا الخيار أفضل"، كنت في ذلك الوقت قد هجرت الكنيسة، وفقدت الأمل في مصداقية طقوسها واعتقاداتها، فقد كنت على يقين أنها تتعارض مع العقل السليم، وبدأت أطلع على الأديان الأخرى، ومن بينها البوذية، وفي الواقع كنت لا دينياً - ملحدًا - لا أؤمن حتى بوجود الخالق سبحانه، وغالب أفراد أسرتي كانوا كذلك، وهذا ما يشعر به غالبية الشباب الإنجليز، وأكبر دليل على ذلك الكنائس شبه الخالية في شرق البلاد وغربها، وفي لندن على وجه الخصوص.

وصلت إلى نيجيريا، وكان كل شيء فيها غريباً، فقد كانت بريطانيا مختلفة عن نيجيريا في كل شيء: المواصلات، الطب، المناخ، الناس، الطرقات، المطاعم، الحدائق،... إلخ، كانت حياة مختلفة تمامًا، وكان لا بد أن أخوض التجربة وأقبل التحدي، فلم يكن هناك خيار آخر!

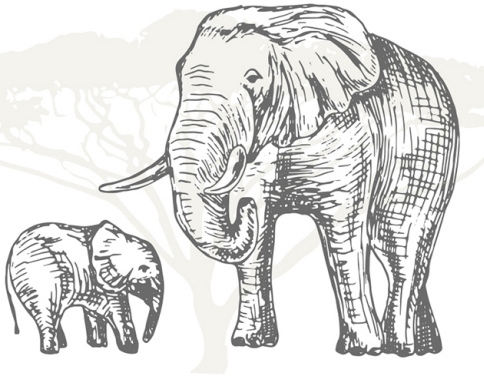

ثم وصلت إلى منتزه ينكاري الوطني، وقد كانت غابة كبيرة جدًا غاية في الجمال وذات طبيعة بكر، لم يكن يعكر صفوها إلا تعديات بعض الصيادين على بعض حيواناتها من أجل مكاسب محدودة، وقد كانت لهذه التعديات آثارٌ سلبية كبيرة على البيئة ومخلوقات الغابة وتوازنها الطبيعي.

ولهذا تولت حماية الغابة واحدة من الهيئات العالمية المهتمة بحماية البيئة. وقد كانت مهمتي قيادة طائرة مروحية صغيرة تستطيع الطيران على ارتفاعات منخفضة، ومراقبة الغابة، والإبلاغ عن التعديات فيها.

وبعد فترة من الزمن اعتدت على حياة الغابة، وتعلق قلبي بالطبيعة بكل ما فيها من جمال وتوازن، كانت علاقتي بالسكان المحليين حول الغابة محدودة جدًا، فمعظم حاجاتنا تجلبها إلينا في الغابة الهيئة المسؤولة عن حماية البيئة، ومع مرور الزمن واستكشاف الحياة حول الغابة، بدأت أتعرف على طبيعة سكان المنطقة البسيطة جدًا، وفطرتها النقية، لم تكن هناك طرق معبدة، ولا كهرباء، ولا شبكة مياه، ولا صرف صحي، طبيعة حياتهم ومعيشتهم وملابسهم محدودة جدًا، يعتمدون فيها على مزارعهم البسيطة ومنتجاتها المحدودة، لم تكن هناك وسائل للترفيه أو الرعاية الصحية أو التعليمية، وكأنهم في جزء منسي من العالم. ولكني اكتشفت أنهم يملكون من القيم وحسن التعامل والرضى والشعور بالسعادة ما أذهلني!!

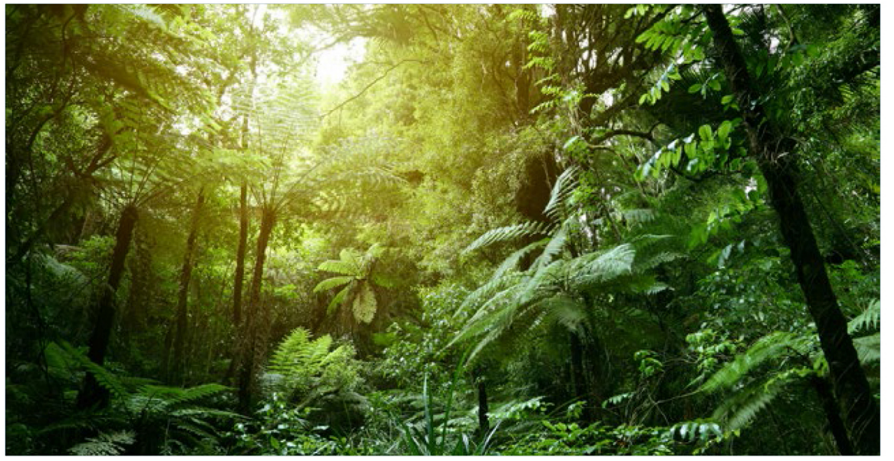

لم أره أو أشعر به في لندن، مع أنها واحدة من أرقى حواضر الدنيا وأكثرها رقياً وثقافة ورفاهية. وبفطرتي الاستطلاعية، ومن خلال زياراتي المتعددة للقرى المجاورة للغابة، تعرفت على بعض منهم، وحاولت تعلم لغتهم للتفاهم معهم، فمن النادر جدًا أن نجد فيهم من يتحدث بلغة إنجليزية مفهومة، على الرغم من أن الإنجليز قد استعمروا بلادهم ما يزيد على قرن من الزمان!! والأدهى من ذلك أن لغة المستعمر قد فرضت لتكون اللغة الرسمية لنيجيريا كلها، مع العلم أنها تحوي أكثر من أربعين لغة.

كان سكان المنطقة من قبائل الفولاني، ولغتهم الفولانية، وتسمى أحيانا "فلاتة "، وجميعهم مسلمون.

كان نادرًا ما يزورنا أحد في تلك البقاع النائية جدًا، إلا بعض المنصرين الذين يجوبون تلك المناطق بين حين وآخر.

كنت أعجب من جَلَدهم وصبرهم واجتهادهم في نشر النصرانية، ومع تلك الجهود الكبيرة في أماكن غاية في الوعورة، وما يملكونه من إمكانيات مبهرة، فلم يكونوا يجدون آذاناً صاغية من قوم تشربوا دينهم واعتقدوا به، على الرغم من ظروفهم المعيشية القاسية جدًا، وكان ذلك يبهرني ويثير لدي كثيرًا من التساؤلات.

وكما أسلفت أنني لم أكن أؤمن بالنصرانية وتعاليمها، بل كنت أتجنب الحديث عنها، فلقد كنت ملحدًا، نشأ وترعرع في أحضان أسرة ملحدة.

لقد كان لدي كثيرٌ من الشكوك وعدم الثقة في القساوسة والرهبان جميعهم وبكافة أطيافهم.

وفي يوم من الأيام، زارني أحد المنصرين وهو يعرف رأيي في النصرانية، فقال :

دعني أتحدث معك يا فيليب.

قلت: تفضل. قال: أرأيت هذه الطائرة التي تركبها وتطير بها، هل صنعت نفسها أم لها صانعاً؟ فقلت: بل صُنعت، ولها صانع. قال: فما رأيك في جسمك هذا، هل هو أكثر تعقيدًا ودقة أم التي تقودها وتطير بها في الغابة؟ قلت: بل جسمي. قال: تؤمن بأن الطائرة البسيطة لا يمكن أن تكون بلا صانع، وجسمك هذا المذهل الصنع والمتقن الخلقة جاء بلا صانع! لقد كان كلامه مقنعاً، لكنني لم أكن أثق به؛ فقد كانت لدي قناعة بأن النصرانية ليست بدين حقٍ.

> غادر المنصر، لكنه ترك تساؤلات في نفسي لم تكن بهذه الجدية من قبل.

غادر المنصر، لكنه ترك تساؤلات في نفسي لم تكن بهذه الجدية من قبل.

وذات مرة، في زيارة لي للقرية المجاورة لحديقة ينكاري الوطنية، صادف ذلك قدوم شيخ شاب اسمه جعفر، وشاء الله أن أتقابل معه، فتحدث عن عملي، وما أقوم به من خدمات لحماية بيئة الغابة وحيواناتها، وكان لطيفاً في تعامله، صادقاً في لهجته، شعرت بالرغبة في التحدث معه عن الخالق والكون، وكانت إجاباته مقنعة.

ومرت الأيام، وأصبت بالملاريا، وأرهقتني الحمى، وكنت في حالة صحية صعبة، فما إن علم أهل القرية بالأمر حتى حملوني إلى أحد أكواخهم، وأسندوا إلى أحدهم متابعة حالتي والعناية بي، حيث لم يكن هناك رعاية صحية أو مستشفيات قريبة، وقد كانوا معي في غاية الرقة، ووجدت منهم فائق العناية والرعاية، مع أني رجل أبيض وسليل للمستعمرين الذين أذاقوهم الويلات، وفعلوا بهم الأفاعيل، وأخذوا خيرات

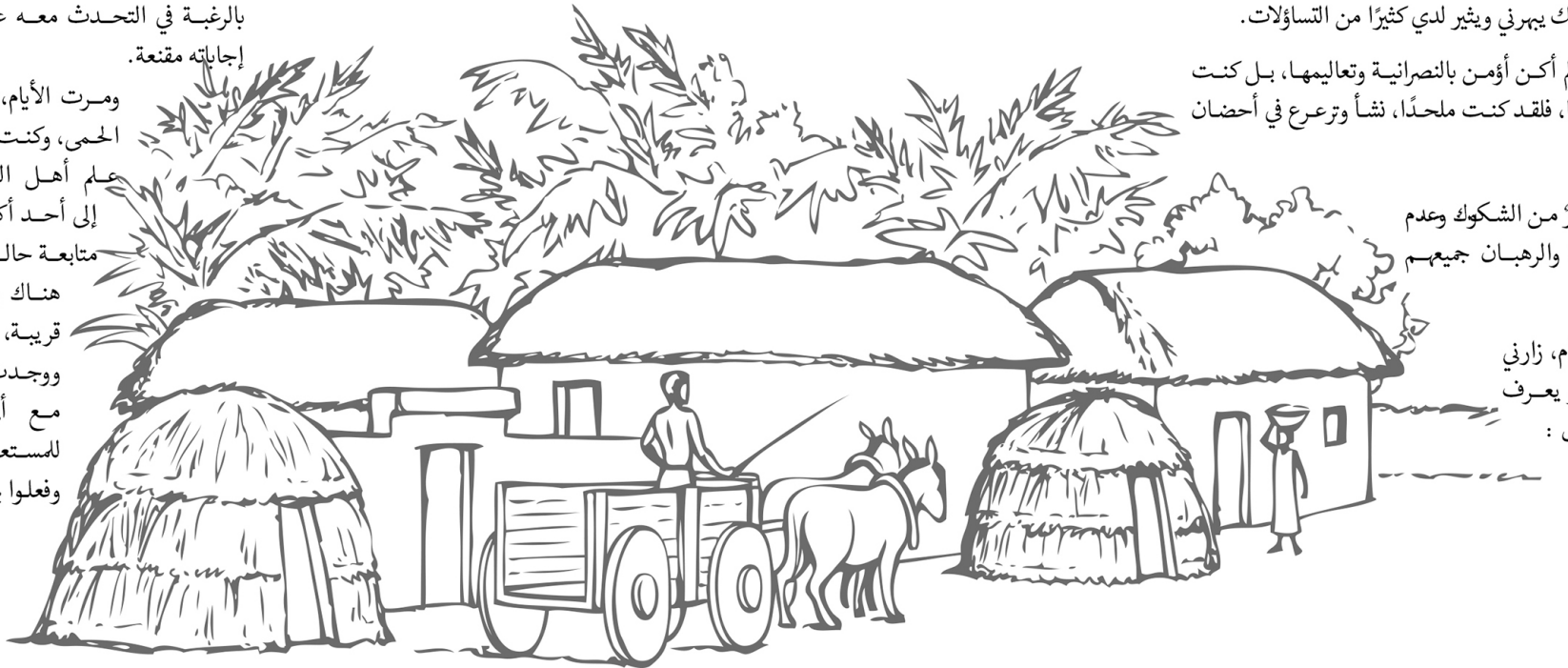

بلادهم، واستعبدوهم، وكنت على دين غير دينهم!! فلم أكن مسلمًا. وكنت أتساءل: لماذا يفعلون كل هذا دون مقابل؟ لماذا يضحون بأوقاتهم وصحتهم ومالهم وقوت عيالهم من أجل العناية بي؟ هل سيفعل جيراني في لندن مثلهم؟ بل هل ستعتني أسرتي بي هذه العناية؟ لا وألف لا. لا بد أن هناك سرًّا خاصًّا يجعل هؤلاء البسطاء يقدمون لي هذه الرعاية ويضحون من أجلي!!

كل هذه التساؤلات بدأت تجول بخاطري وأنا أتفحص وجوههم السمراء المشرقة، وصدق مشاعرهم، وشفقتهم علي.

بدأت تجول في خاطري أيضًا نظرتي الدونية السابقة لهم، وكلمات المنصرين حول الخلق والخالق، ولقاءاتي المتكررة مع الشيخ جعفر، الذي كنت أشعر بالارتياح للحديث معه، وللمنطق الجميل الذي كان يعرض الإسلام من خلاله بطريقة غير مباشرة.

عادت لي عافيتي وعدت لعملي، ولكن قلبي تعلق بأهل القرية البسطاء، وحياتهم الفطرية، وتعاملهم الراقي، فكنت على تواصل دائم معهم كلما سنحت لي الفرصة، وبعد فترة شعرت أني قد أصبحت واحدًا منهم على الرغم من لون بشرتي المختلف، وانتمائي البريطاني، ولغتي الفلانية المكسرة، وطريقة حياتي المختلفة، فلم يُشعروني أبدًا بأنني غريب بينهم، أو أجنبي عنهم؛ فقد عاملوني بكل ودٍّ واحترام وعناية ورعاية عندما كنت مشرفًا على الموت، وبذلوا لمداواتي كل ما يستطيعونه، وربما لم يكونوا ليقدموها لأنفسهم وأبنائهم!

لقد كانت نقلة مهمة جدًا في حياتي، بل لقد كانت فترة فتحت فيها عقلي على حقيقة هذا العالم، وأنه لا بد أن يكون لهذا الكون خالق عظيم يدبر أمره، ومما دبره سبحانه هو أن وجهني لهذه البلاد التي لم أكن أرغب في المجيء إليها ولا العمل بها، ولم أكن أعرف عنها شيئًا، وما يدريك يا فيليب أن الله الذي لم تكن تؤمن بوجوده هو من دبر لك هذا، ويسره لك لكي تعرف حقيقة وجودك، بل حقيقة الخلق وهدفه؟

دخل فيليب في صراع مع أفكاره الملحدة السابقة، ورأى في حياة أولئك البسطاء وصدق علاقتهم بربهم وقوة تعلقهم بخالقهم وهم في هذه الظروف الحياتية الضعيفة ما أربك تصوراته وقلب قناعاته رأسًا على عقب، فلا الحضارة الغربية ولا الثقافة اللندنية والحياة البرجوازية ولا النصرانية التي هجرها خلفه في لندن ولا المنصرون الذين أرهقوا القرية والغابة جيئة وذهابًا كانت قادرة على تغيير تلك القناعات، وبدأ فيليب بالتقرب من أهل القرية، ومن الشيخ جعفر الذي كان يزور القرية بين الفينة والأخرى قادمًا من المدينة المجاورة.

وبدأ ذلك الكلام الرباني يتسلل إلى فؤاد فيليب، حتى إنه لم يعد يحتمل غياب الشيخ جعفر، حيث بدأ يذهب إليه في المدينة المجاورة رغم صعوبة المواصلات ووعورة الطريق.

وجاءت لحظة الحسم ووقفة الصدق مع الله ثم مع النفس، فأعلن فيليب أنه قد أسلم لله رب العالمين.

وما يدريك يا فيليب أن الله قد أتى بك إلى هذه الغابة النائية والأرض الغريبة، وإلى البشر من ذوي البشرة السمراء واللغة والعقيدة المختلفة الذين كانوا ذوي فطرة طاهرة، أتى بك سبحانه لغاية عظيمة؛ ليصرفك عن البوذية وعبادة الأوثان إلى الاستسلام لله الواحد القهار.

نعم "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله "؛ لقد حررتني هذه الكلمات وهذا الإيمان من عبودية الإلحاد، لقد كان فرح أهل القرية لا يوصف بإسلام فيليب كلارك، فلقد أصبح لهم ابنًا وأخًا، وأصبحوا له اهلاً وعشيرة، إنها أُخوّة الإسلام ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: 10).

يقول فيليب: لقد شعرت بأنني قد وجدت أسرتي الحقيقية، فلم أكن أشعر بهذا الانتماء لعائلتي التي ولدت وترعرعت فيها، لا يوجد مثل هذا الحب الصادق إلا في قلوب المؤمنين.

بعد إسلامي شعرت بأنني في حاجة لهوية جديدة تعبر عن صدق انتمائي للدين الحنيف، للإنسان.. للمكان.. لخالق هذا الكون العظيم. وبعد فترة من التأمل والتفكير اخترت لنفسي اسمًا جديدًا مذكّرًا بالخالق سبحانه، ألا وهو: عبد الرحمن، من أحب الأسماء إلى الله سبحانه الذي هداني واختارني أن أكون عبدًا له، واخترت ينكاري - المنطقة التي عشت فيها أجمل سنوات العمر بين أطيب أناس عرفتهم في حياتي - ليكون اسم عائلتي، فأصبحتُ عبد الرحمن ينكاري، بدلًا من فيليب كلارك.

فقدت اسمًا لم أختره، وعائلة وجدت نفسي مولودًا فيها، وبلدًا أصبحت أشعر بأني غريب فيه، مع أني أعرفه أكثر من الغابة التي أعمل فيها.

إنها حياة جديدة، ورؤية للكون والنفس والوجود مختلفة، إنني شخص آخر بكل ما تعنيه الكلمة. نعم، أختلف بلون بشرتي، بزرقة عيني، بلساني، لكني أصبحت واحدًا من ينكاري بمشاعري، بعقيدتي، بقرآني، بصلاتي، بدعائي، وقد كان ذلك بكامل اختياري. ولهذا كنت أرى أنه لا بد من اسمي الحقيقي "عبد الرحمن ينكاري".

زاد تعلقي بالقرية والصلاة في جماعة أهل القرية في مسجدهم المتواضع المبني بالطين والقش، لكنه كان في عيني أعظم من تلك الكنائس ضخمة البناء، عظيمة القيمة تاريخيًا لدى أهلها، والتي كانت في غاية الإبداع الهندسي والمعماري؛ إذ لم تستهوني أبدًا.

وعندما بدأ ترددي للصلاة في مسجد القرية، وتزايد حبي للصلاة في جماعة من قوم أحببتهم وشعرت بالسعادة في أحضانهم، اقترح أحدهم أن أسكن معهم في القرية وأذهب إلى عملي فأعود للقرية توفيرًا لوقتي وجهدي، فما كان من أهلي - أهل القرية - إلا أن بنوا لي بيتًا من أجمل بيوتهم وجهزوه لي بكل ما يستطيعون، ومع بساطته وانعدام أغلب وسائل الراحة التي اعتدتها، كان مأوى لطيفًا، أحسست فيه بغاية الراحة والسعادة، فجزاهم الله خيرًا.

لقد شعرت بالجسد الواحد لأول مرة في حياتي، لم يكن أحد من أسرتي يأبه بمصيري أو حياتي أو حتى مماتي، إن الله قد منحني أهلاً حقيقيين.

ومضت الأيام، وإذا بمجموعة من أهل القرية يناقشونني في أمر لم يخطر لي على بال أبدًا: "يا عبد الرحمن، أنت ابننا الآن، وواحد منا، وأنت تسكن عزباً وحدك، ولا يوجد أحد يقوم على شؤونك، فلماذا لا تتزوج؟" عجيبون هؤلاء الناس! كل يوم أكتشف شيئًا جديدًا يدل على ما هم عليه من طيبة وفطرة نقية وصدق في كل شيء.

لا تكره من أمر الله شيئًا، لا تحزن، لا تجزع، لا تخف، ضع كل ثقتك بالله وتوكلك عليه، فسيختار لك خيرًا مما تختاره لنفسك

نعم.. لقد تزوجت فتاة ينكارية سمراء أدخلت السعادة في قلبي؛ فقد كانت سكنًا وهناءً وزوجةً صالحة، لم يكن لفتاة إنجليزية شقراء أن تكون مثلها أو أن يملأ قلبي جمالها، إنه الإسلام غير كل حياتي، ومنها رزقت بدرة الحياة وجوهرة الفؤاد، أسميناها: مروة.

بعد أن استمتعنا معًا باستماعنا لهذه القصة العجيبة، التي طافت بنا قارتين متباينتين، جمعهما الحب الرباني والقدرة الإلهية، أتوقف عن الاستمرار في سرد هذه القصة العجيبة هنا، مع وجود أحداث وتفاصيل كثيرة آثَرْت ألا أسردها الآن؛ وذلك لتحقق الهدف من سرد هذه التجربة الرائعة التي عشت وسمعت أحداثها من أخي عبد الرحمن ينكاري، وفقه الله وجمعنا به في سبيل الخير والصلاح والجنة في الآخرة بإذن الله.

فما يدريك أن الله يوجهك إلى وجهة لا تريدها ولا ترغبها فيحدث الله بعد ذلك أمرًا فيه صلاح دينك ودنياك، لا تكره من أمر الله شيئاً، لا تحزن، لا تجزع، لا تخف، ضع كل ثقتك بالله وتوكلك عليه، فسيختار لك خيرًا مما تختاره لنفسك. وما يدريك...

وما يدريك ...

كنا في رحلة عمل إلى دولة نيجيريا؛ للإشراف على سير مشاريع إحدى أكبر الهيئات الإسلامية الإغاثية، وكان العمل يتركز في تقييم وضع الأيتام الذين ترعاهم الهيئة، ومتابعة تنفيذ مشروع "إفطار صائم" في شهر رمضان منذ عام 1741هـ، وكان رفيقي من الأخيار ومن الرجال الصابرين المحسنين والمحبين للخير.

ورطة في مطار لاجوس

وما يُدريك ...

بدأت الرحلة بالحجز على الخطوط الأثيوبية، ذهابًا وإيابًا، وذلك عن طريق "أديس أبابا" ومن ثم إلى "لاجوس"، عاصمة نيجيريا السابقة، قبل أن تنتقل إلى "أبوجا"، وهي تقع في جنوب نيجيريا، وكانت الخطوط السعودية قد أوقفت رحلاتها إلى نيجيريا منذ زمن، كما لم نجد حجزًا على الخطوط النيجيرية؛ لعدم انتظام رحلاتها، وعليك انتظار قدوم الطائرة لتتمكن من شراء التذاكر!

على كلّ حال غادرنا، ووصلنا إلى لاجوس - بسلامة الله - بعد انتظار عدة ساعات في مطار أديس أبابا، بعدها أمضينا عدة أيام في جنوب نيجيريا لمتابعة المشاريع هناك، وكان من بينها تنفيذ مشروع إفطار صائم في منطقة أبادن، الذي استفاد منه الآلاف من المسلمين المحتاجين، ثم سافرنا إلى شمال نيجيريا حيث مدينة كادونا، وأمضينا باقي المدة هناك، وكانت - بفضل الله - رحلة موفقة تحقق فيها الخير الكثير.

في نيجيريا أيقنّا أن الفساد مصيبة عظيمة على كل بلد، فهو يسلب موارده، ويضعف بنيته التحتية، ويؤصل فيه الطبقية

المجتمعية؛ فنيجيريا بلد غني بموارده الطبيعية، من نفط وغيره، وأرضها خصبة، ومواردها المائية وفيرة، والأيدي العاملة كثيرة؛ لكن الاستبداد وتسليم أمر البلد إلى غير الأكفاء وأصحاب الولاءات المزدوجة من ورثة المستعمر أفسدا كل شيء!!

نيجيريا بلد غني بموارده الطبيعية، من نفط وغيره، وأرضها خصبة، ومواردها المائية وفيرة، والأيدي العاملة كثيرة.

أنهينا جدول أعمال الرحلة - بفضل الله -، وتحققت معظم أهدافها، وعدنا أدراجنا إلى لاجوس في طريق العودة إلى بلاد الحرمين عبر خطوط الطيران الأثيوبية، من كادونا إلى لاجوس، فصاحب الشركة الحاج أحمد شنشينقي من كبار التجار المسلمين في أفريقيا، ومن أكثرهم دعمًا وسخاءً لأعمال الخير والدعوة. وصلنا إلى لاجوس مساء يوم المغادرة إلى أديس أبابا ومنها إلى جدة بإذن الله.

وقد سبق ذلك أن كلفت موظف العلاقات العامة في كادونا أن يتأكد من أن رحلتنا من لاجوس إلى جدة مؤكدة، ولم تكن الحجوزات عن طريق الإنترنت قد فُعّلت، فأخبرني بأن كل شيء على ما يُرام؛ فعلنا ذلك لعلمنا بتعقيدات الطيران وسوء توثيق الرحلات والحجوزات، خاصة في نيجيريا.

ذهبت أنا وزميلي إلى المطار صباح يوم السفر، حيث كان سفرنا مساء ذلك اليوم، وبعد وصولنا إلى المطار ذهبنا لمكتب الخطوط الجوية الأثيوبية؛ لنتأكد من أن الرحلة في موعدها، ولما يتطلب لإنهاء إجراءات السفر، خاصة أنه لا أحد يرد على الاتصالات الواردة إلى مكتب الشركة، وكان المطار يبعد عن سكننا في وسط لاجوس ما يزيد على ساعة، وعندما قدمنا التذكرة لمدير المكتب متسائلين عن الرحلة، صعقتنا إجابته عندما قال: لقد ألغي حجزكم، فلم تقوما بتأكيده، ولهذا نعتذر عن إمكانية سفركما على هذه الرحلة، ولا توجد رحلات ممكنة خلال

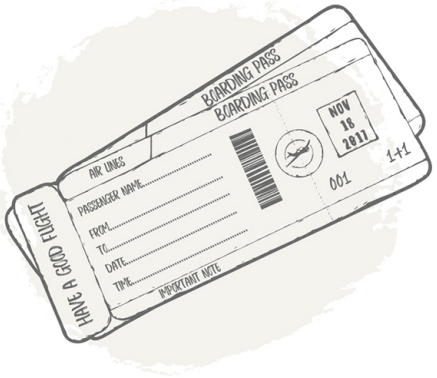

الفترة القريبة، وكان ذلك في أواخر شهر رمضان المبارك، وموسم العمرة على أشده.

لم يكن زميلي يجيد اللغة الإنجليزية، لذا لم يفهم ما دار بيني وبين موظف الخطوط الأثيوبية، لكن ردة الفعل والذهول كان واضحًا جدًا على ملامحي؛ فما كان منه إلا أن سأل: "عسى ما خلاف يا دكتور عبد الله ؟!"، شعرت بالذهول لفترة من الزمن دون أن أرد بكلمة، ماذا أقول وكيف أبلغه الخبر؟! فإن وضع نيجيريا صعب جدًا، فهي مدينة لا تطاق الحياة فيها في ذلك الوقت، حتى إن الحكومة نقلت العاصمة إلى مدينة أخرى تبعد عنها أكثر من 600 كيلومتر.

كان الحصول على حجز قريب على الأثيوبية أو أي طيران آخر شبه مستحيل، لم يكن لدينا مبالغ مالية تكفينا لشراء تذاكر جديدة، أو حتى للسكن عدة أيام في هذه المدينة، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

كنت حينها في غاية الحرج أن أبلغ صاحبي بكل هذه التعقيدات والتحديات الصعبة، حاولت مع مدير المحطة أن يجد لنا حلًا، ولكن دون جدوى، وأكدت له أننا ما دمنا قد اشترينا التذكرة سابقًا فلا حاجة لتأكيدها مرة أخرى، ولكن كل تلك المحاولات باءت بالفشل، وكان لزاماً أن أبلغ صاحبي بما حدث، فكان رده صمتًا مطبقًا.

خرجنا من مكتب الخطوط الأثيوبية هائمين على وجوهنا، لا نعلم ماذا نفعل، لكن أملنا في الله ولطفه بنا كان عظيمًا جدًا عندما تخور قوانا وتعجز وسائلنا، خاصة أننا كنا في عمل خيري نحتسب فيه أجرنا على الله سبحانه.

وبينما نحن في حالة من الذهول، والشعور بالإحباط والعجز التام، لا ندري ما نفعل، إذا بالخطوط النيجيرية تعلن عن إقلاع رحلتها المتجهة إلى جدة، وما إن سمعنا النداء برحلة جدة، حتى انطلقنا إلى مكتب الرحلة، ولكننا أصبنا بخيبة أمل عظيمة عندما أبلغَنا الموظف بأن الرحلة مكتملة العدد، وأن هناك عددًا كبيرًا في قائمة الانتظار، وأن كل الرحلات في الأيام القادمة محجوزة تمامًا!!

"لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين" هذا كل ما استطعنا قوله، لكن ما يدريك أن فرج الله قريب؟ فهو سبحانه قريب، يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء سبحانه بفضله ومنه.

وما إن غادرنا مكتب الخطوط النيجيرية بأمتار محدودة، حتى سمعنا صوتًا مدويًا من خلفنا: "يا دكتور قحطاني.. يا دكتور قحطاني"، لم يكن لدي أدنى توقع بأن أحدًا هناك يعرفني في هذا المحيط البشري، ولم يخطر ببالي في البداية أنني أنا المعني بهذا النداء المتكرر، فالتفت فإذا أنا بالشيخ عبد الرشيد هداية الله، أحد الدعاة المشهورين في جنوب نيجيريا، ورئيس رابطة خريجي الجامعات السعودية، وهو شخصية إعلامية وسياسية مرموقة في نيجيريا، وكان أحد خريجي كلية الشريعة في فرع جامعة الإمام بأبها.

احتضنته كما يحتضن طفل ضائع أمه عندما يراها بعد أن أعياه البكاء والخوف واليأس..

أصدقكم القول، أن هذه اللحظة كانت من المواقف التي لا يمكن أن أنساها ما دمت حيًّا، لقد كان موقفًا إيمانيًّا، شاهدت فيه عظمة الله ورعايته وقربه عز وجل من عباده، وتدبيره الذي لا يمكن أن يستوعبه عقل. نعم، لقد كانت احتمال مقابلة الشيخ هداية من الله في هذا المكان وهذا الزمان وعلى هذه الحالة شبه المستحيلة، ولكن (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا)..

احتضنته كما يحتضن طفل ضائع أمه عندما يراها بعد أن أعياه البكاء والخوف واليأس، وقد كنت بين يديه كذلك؛ فقد كان رجلًا ضخمًا جدًا، لكنه لم يكن ضخمًا بجسمه فحسب، فأولئك كثر، ولكنه كان ضخمًا في مواقفه ورجولته وعمله لدينه وأمته.

سألنا: ما الأمر؟، فأخبرته بحالنا، فأخذ بيدي مباشرة كما يأخذ الوالد بيد ولده الصبي الصغير ليقضي له حاجته، وأدخلنا على مدير الخطوط الجوية النيجيرية في مطار لاجوس. ثم قال بكلمة واحدة واثقة؛ لا بد أن يذهب هذان الشيخان على هذه الرحلة إلى جدة مهما كان الثمن.

تجمد مدير المحطة برهة من الزمن دون أن ينبس بكلمة واحدة، ونحن باهتون من المحاورة، شاخصة أبصارنا، نترقب، ومدير المحطة في لحظة حرجة جدًا، ونحن في موقف أشد حيرة، فلم نكن نعرف ماذا نفعل، فقد استنفدنا كل إمكانياتنا المالية، وليس لدينا حتى ثمن تذكرة جديدة، أو السكن لأيام، الله يعلم كم تكون حتى تتيسر لنا رحلة أخرى، لاجوس بلدة لا يطاق العيش فيها آنذاك، بل لقد وجدنا أن غرفتنا في الفندق قد تعرضت للسطو، فكانت حالة من الصدمة والذهول والشعور بالضياع لا يمكن وصفها.

وبعد تواصل مدير المحطة ببعض المسؤولين، وتماطل ليس باليسير، جاء الرد قائلًا: " لا أستطيع أن أرد لك طلبًا يا شيخ عبد الرشيد، وسأتحمل مسؤولية هذا القرار. أين حقائبكما؟ لا بد من الدفع بالجنيه الإسترليني في ترحيل الركاب "نظرت إلى أخي وزميلي، ونظر إلي، وكانت نظرات ذهول.. لم يستطع قول شيء لبرهة، العفش !! العفش في الفندق، ومضى أكثر من نصف ساعة في المطار على الأقل، ولا نملك جنيهًا إسترلينيًا واحدًا على الذي معنا، إنما هي مئات من الليرات النيجيرية، الريال الواحد يساوي عشرين ليرة، ماذا نفعل، وكيف ندفع؟

لقد كانت حقائبنا التي لم نرتبها بعد مليئة بالأوراق والتقارير المهمة، لا حول ولا قوة إلا بالله. لكن لم يكن من بدّ سوى إخبار الشيخ عبد الرشيد هداية الله ومدير المحطة بالأمر؛ فليس لنا خيار آخر، "حقائبنا في فندق إنترناشيونال هوتيل، وليس لدينا مبلغ يمكن أن تسدد منها قيمة التذاكر"، ودون ن يلتفت الشيخ هداية الله لمدير المحطة وبلهجة واثقة قال: "إن شاء الله سأدبر قيمة التذاكر، وأنتما انطلقا إلى الفندق وأنهيا إجراءاتكما وأحضرا الحقائب عاجلًا، ولن أسافر حتى تسافرا بإذن الله".

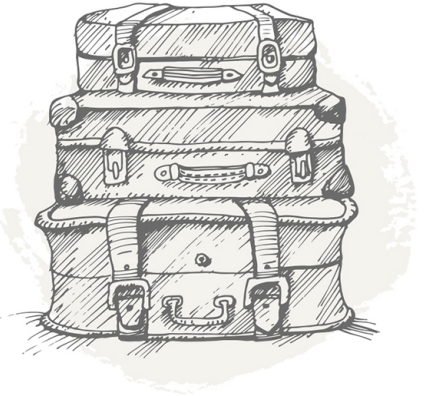

وفي لمح البصر ودون أن ننتظر رد مدير المحطة انطلقنا إلى موقف التاكسي، وكانت أول مرة في حياتي أخاطب سائق التاكسي بهذه اللغة: "أريد فندق إنترناشيونال هوتيل ثم تعيدنا إلى المطار، أريدك أن تطير، لا تمش على الإسفلت"، التفت إلي باستغراب، قلت: إن كنت لا تستطيع سآخذ سيارة أخرى.

كان يقود السيارة بسرعة أعتبرها الآن جنونية، لكنها في ذلك الوقت كانت ضرورة حتمية..

قال: بأربعمائة ليرة. فقلت: بل ثمانمئة ليرة، وربما كانت كل ما تبقى معنا من مال، وفعلًا، لقد كان يقود السيارة بسرعة أعدّها الآن جنونية، لكنها في ذلك الوقت كانت ضرورة حتمية، بل كنت أشعر مع هذه السرعة الجنونية والمناورات بين السيارات، بأنه بطيء بطء السلحفاة.

وصلنا الفندق بعد أن جف ريقنا ونضب عرقنا، وانطلقنا إلى غرفتنا، ففوجئنا بأن قفل الباب الإلكتروني لا يستجيب للمفتاح، حاولنا عدة مرات، فلم تنجح محاولاتنا، علماً أن هناك من حاول اقتحام الغرفة فلم ينجح، وعدنا هرولة لموظفي الاستقبال، ومع شدة استعجالنا وقلقنا كانوا أبطأ ما يكون، بل كانوا غير مبالين للأسف، وربما كان ذلك شعورنا ونحن في تلك الحالة من العجلة والقلق على فوات الرحلة، وكأنها فرصة النجاة الأخيرة، ولكن أملنا في معية الله لم يغب لحظة بفضل الله.

وبعد دقائق كأنها أيام جاء الموظف المختص وفتح الباب، ولم تكن حقائبنا قد أعدت للسفر، ولكن لم يكن يهمنا ذلك، وما كان يهمنا هو التقارير والمعلومات التي جمعناها طوال وقت الزيارة، وانطلقنا إلى المطار بسرعة أكبر وقلق أشد، وزحمة أكثر في الطريق، وما إن ولجنا ردهات المطار حتى وجدنا الشيخ عبد الرشيد - وفقه الله وجزاه الخير الكثير - واقفًا في انتظارنا على وعده، وقد تأخر وقت الإقلاع أكثر من نصف ساعة، ولم يبق أحد من الركاب إلا نحن، حتى إن استقبال العفش قد توقف، وقف الشيخ بقامته المهيبة وموقفه الصادق، فرحب بنا، وأخذ

بأيدينا إلى الطائرة مباشرة وكأننا أبناؤه الصغار، دون أن يامح إلى أننا تأخرنا أو عطلنا الطائرة، وكان بجواره مدير المحطة وهو على أحر من الجمر، ودخلنا الطائرة والأعين تحملق فينا؛ وكأنها تقول لنا: أنتم من عطّلنا، وقد كانت مقاعدنا في أفضل مكان، فجلسنا دون أن ننبس بكلمة وكأننا في حلم، وما إن التصقت أجسادنا بمقاعد الطائرة حتى بدأنا ننظر حولنا، ونتيقن بأن ما حدث ليس مسرحية تراجيدية مفبركة، ولا تمثيلاً كاذباً، نعم، بدأنا نتحسس مقاعدنا وينظر بعضنا إلى بعض بنظرة السعادة والأمل والتفاؤل، بعدما كدنا نيأس وتخور قوانا، وكاد السبيل أن ينقطع بنا، "لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين" لقد كان هذا دعاءنا، وكان ذلك رجاءنا وأملنا في مولانا، نعم إنها إرادة الله،فما يدرك.. لقد أراد الله أن نفقد رحلة كانت ستمر بدولتين قبل أن نصل إلى جدة في وقت متأخر، برحلة مباشرة تتوقف في شمال نيجيريا "كانو" لمدة ساعة فقط ونصل في نفس اليوم، تعلمنا في تلك اللحظات العصيبة أن الله قريب مجيب، وأن الرجال الصادقين المخلصين هم السند بعد الله، بغض النظر عن ألوانهم وبلدانهم ولغاتهم، فالإسلام هو الذي جمعنا، فما يدريك؟ لعل الله يريد تيسير أمرنا، وتعجيل وصولنا إلى بلادنا وأهلنا، وحفظنا من أمر لا ندري عنه، ومايدريك؟ لعل الله يريد منا أن نعرف قيمة أخ لم تلده أمهاتنا، فجزاه الله خير الجزاء، وحفظه حيثما كان، وأخلفه خيرًا.

وما يدريك...

زارني في مكتبي بالجامعة أحد الزملاء الفضلاء، وقد كان حينئذٍ عميدًا لكلية الصيدلة، ومعه زميل من أساتذة الكلية من الهند، وكان يريد إبلاغنا برؤيا عجيبة، رآها عندما كان يعمل في مستشفى كليفلاند بولاية أوهايو في الولايات المتحدة الأمريكية، وهو واحد من أشهر المستشفيات البحثية في العالم.

وقبل أن يخبرنا الدكتور كومار برؤياه العجيبة، رأيت أن أتعرف أكثر على د. كومار. لقد كان واحدًا من العلماء المهتمين باستعمال تقنيات النانو في معالجة الأمراض المستعصية، وقد حصل على براءات اختراع وشهادات تقدير علمية عالمية، وهو مسجل ضمن قائمة مشاهير العلماء في تخصصه.

كومار من كليفلاند إلى مكة

وما يُدريك ...

ولد كومار في أسرة هندوسية من طبقة البراهما، وكانت أسرته تقوم بإعداده ليكون واحدًا من رجال الدين الهندوس، والبراهما هم الطبقة العليا حسب النظام الاجتماعي الديني للهندوسية، كما كان عالمًا بكتب الهندوسية السنسكريتية، أو ما يعرف ب "فيدا".

بعد هذا الموجز المختصر عن د. كومار، أترك له المجال ليتحدث عن رؤياه العجيبة، يقول: رأيت في إحدى الليالي -بينما كنت أعمل في كليفلاند كلينك - أنني أطوف بالكعبة، وما كان لي أن أعرف أنها الكعبة لولا أني كنت أشاهدها في التلفاز، وبينما كنت أطوف كنت أردد كلمات بالعربية لا أعرف معناها.

وفي صباح اليوم التالي توجهت إلى أحد زملائي المسلمين في المستشفى، وكان اسمه "صابر"، فأخبرته بما رأيت، فما كان منه إلا أن أجهش بالبكاء، فأصبت بالذهول، وظننت أني قد تسببت له بحرج، فاعتذرت إليه، لكنه بعد أن هدأ روعه قال لي: أنت لم تسبب لي بأذى، ولكني عجبت من هذه الرؤيا وهذي الكلمات العظيمة، فقد كانت كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، أي لا معبود يستحق العبادة في الوجود إلا الله، ولكن - مع الأسف - لم يحدث شيء بعدها.

وكان تعلقي بالكعبة والمسلمون يصلون حولها ويطوفون في ازدياد، وكان اشتياقي يزداد يومًا بعد يوم لمشاهدتها، مع أنني لم أكن مسلمًا.

بينما كنت أحادثه إذا بالدمع يترقرق في عينيه، وهو يقول: ربي يدعوني لزيارة بيته، أنا موافق..!

وبعد فترة قصيرة يسر الله لي التعاقد للعمل بجامعة الملك خالد في أبها، فلم أتردد، بل لم أقم بمفاوضات حول الراتب والبدلات وغيرها، وكأنني أساق سوقًا لهذا الأمر، وكنت أقول في نفسي: لا تدري يا كومار، لعل أمرًا لا تعلم كنهه سيحدث!!

وعندما بدأت العمل في الكلية، رأيت في الدكتور محمد القثردي - عميد الكلية - طِيبةً في التعامل، وإخلاصًا في العمل؛ فأبلغته برؤياي في كليفلاند، فطلب مني زيارتك والحديث معك حول هذا الموضوع، فوافقت، وبعد أن أبلغني بقصته، قلت له: د. كومار، ما يدريك؟ لعلّ لله سبحانه يريد لك خيرًا عظيمًا.

تبسم قائلًا: ماذ تعني؟

قلت له: هذ نداء لك من خالقك العظيم، لتوحده سبحانه وتبتعد عن عبادة الأصنام والأوثان.. نعم، نداء لك لتدخل في عباد الله الصالحين الموحدين المصلين الطائفين.. إنها دعوة لك لتزور بيته العتيق، إنها اصطفاء لك، ودعوة ربانية لتخرج من ظلمة الكفر إلى نور التوحيد والتعظيم لله، فلمَ لا تسلم؟ هل هناك ما يمنعك من ذلك؟!!

وبينما كنت أحادثه إذا بالدمع يترقرق في عينيه، وهو يقول: ربي يدعوني لزيارة بيته، أنا موافق..!

عندما غادر د. كومار مكتبي كان يراوده هم كبير، ألا وهو: ماذا سيقول لزوجته؟

مرت الأيام الأولى، وبدأت زوجته تلاحظ عليه بعض التغيرات، وبدأت تشعر أنه يخفي عنها أمرًا جللًا ،

فما برحت أن فاتحته بالموضوع: ما بك يا كومار؟ ماذا تخفي؟! أنا زوجتك أخبرني..

وبلا تردد يرد عليها د. كومار: لقد أسلمت ..! وإذا بها بلا تردد تقول: وأنا أسلم معك، فلن تختار إلا الخير، هكذا عرفتك.

يقول د. كومار: لم أكن أتخيل أبدًا أن تكون ردة فعل زوجتي بهذه السرعة من القبول؛ فقد كنت في حيرة من أمري كيف أخبرها؟! وكيف أتعامل مع ردة فعلها؟!

ولكن لا تدري لعل الله يريد أمرًا لا تعلمه، لقد كانت تلك لحظةً من أجمل لحظات حياتي، لقد تجلى لي من خلالها عظيم فضل الله وإجابته لدعائي بهداية زوجتي.

ومع ثقتي بالله إلا أنني لم أكن أتخيل أن يكون كرم الله بهذه العظمة وتلك السرعة.

لقد كان اعتناق د. كومار وزوجته الإسلام نقلة عظيمة في حياتهما.. وكما قال فيما بعدُ: لم أكن مقتنعًا بعبادة الأوثان عند الهندوس على الرغم من أن عائلتي كانت ممن يخدم في المعابد الهندوسية.

وبعد أن هداني الله وزوجتي للإسلام، شعرنا بسعادة عظيمة، تلاها اهتمام بتعلم ما لا يسعنا جهله من دين الإسلام.

وقد كلف المكتب التعاوني للدعوة في خميس مشيط أحد دعاته المجيدين للغة الإنجليزية بعمل برنامج تعليمي مكثف لتعليمي مبادئ الإسلام والعبادات وقراءة القرآن وجملة من الأحكام.

كان هاجسي منذ أن أسلمت أن يتحقق لي الحلم الذي رأيته في كليفلاند أوهايو، ألا وهو أن

أطوف بالكعبة المشرفة، وأتلذذ بعبادة ربي، الذي هداني ويسر لي السبل إليها .

وبفضل الله تحقق الحلم، وأصبحت الرؤيا البعيدة واقعًا لا أكاد أصدقه، فقد كانت أعظم لحظة في حياتي أن اكتحلت عيني برؤية الكعبة المشرفة.

لقد كان لقاءً لا يمكن وصفه، ومشاعر فياضة لا يمكن أن تكون إلا بين يدي الله وفي بيته الحرام.

كانت هذه المناسبة قفزة تحول كبيرة في حياتي، لم أكن أبالي بعدها بشيء، حتى أمور المعاش.. لقد تحقق حلمي بكرامة عظيمة من الله، لم أكن أتخيل أن يتحقق بهذه السهولة وهذه السرعة.

رحلة أخينا د. كومار إلى الهداية لم تنته فصولها، بل تبعتها أمور لا يمكن تفسيرها إلا أنها كرامات من الله له ولزوجته عندما علم الله صدق هدايتهما، ونقاء نيتهما، وثقتهما العظيمة بربهما سبحانه، كذلك أحسبهما والله حسيبهما.

فحينما كنت في اجتماع عائلي في إحدى الأمسيات إذا بهاتفي المحمول يرن، وإذا المتصل د. كومار..!

كومار في غاية الذهول والفرح: السلام عليكم ورحمة الله د. عبد الله.

وعليكم السلام ورحمة الله، حياك الله أخي كومار.

كومار: أحببت أن أزف إليك البشرى، زوجتي حامل، كان هذا مستحيلًا، لقد استجاب الله دعاءنا.. !!

في الحقيقة لم أكن أعرف الكثير عن حياته الأسرية الخاصة؛ كان ردي أن باركت له وحمدت الله ودعوت له بالذرية الصالحة، ولكن كانت المفاجأة عندما قال: إن زوجتي عقيم سنوات عديدة.

قرأت سيرة نبي الله زكريا وتأملت قصته وحالته وحالة زوجته العقيم الشبيهة بحالتي وحالة زوجتي.

لقد أظهرت كل التحاليل في الهند وأمريكا والسعودية أنه من المستحيل أن تحمل زوجتي، ولقد رضينا بذلك القدر، لكن القرآن غير كل قناعاتي..!

لقد شعرت بأن الله غالب على أمره، وما هو مستحيل علينا نحن البشر أمر هيّنٌ على الخالق سبحانه؛ فقد قرأت سيرة نبي الله زكريا وتأملت قصته وحالته وحالة زوجته العقيم الشبيهة بحالتي وحالة زوجتي، وتأملت استجابة الله عز وجل لدعائه، وكيف رزقه بغلام اسمه يحيى في ظروف مستحيلة، فحداني الأمل، وعظمت في نفسي الثقة بعظيم فضل الله وقدرته سبحانه العظيم في تحقيق ما يستحيل على البشر، وشدتني الآية الكريمة والدعاء العظيم لنبي الله زكريا عليه السلام ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (الأنبياء: 89).

أخي د. عبدالله، سأغادر إلى مكة الآن لأشكر الله سبحانه في بيته العتيق، استشعارًا بفضله ومنّه وكرمه.

قلت: الحمد لله، ولكن ألا يمكن أن تشكر الله هنا دون أن تسافر في هذه الساعة من الليل؟ فكان رده عجيبًا: يتفضل الله عليّ بكل هذا ويكرمني هذا الكرم وأستثقل شكره في بيته العظيم؟!

لقد كان هذا حال كومار الذي دخل الإسلام حديثًا وضحى من أجله بكل شيء.. وذلك صدقه مع الله وهذه استجابة الله له بأن بلغه رؤياه ورزقه بالولد في وقت رأى الأطباء استحالة هذا الأمر، فما حالنا نحن الذين نشأنا في الإسلام وقرأنا القرآن عشرات المرات؟!

نعم، لقد اكتمل حمل زوجة د. كومار وولدت ولدًا ذكرًا، أسمياه "عيسى"؛ تيمنًا بتلك الولادة المعجزة لعيسى بن مريم عليه السلام..!

قلت للدكتور كومار: لا تدري، لعل تلك الرؤيا كانت بداية لرحلة عظيمة إلى الاستسلام للخالق سبحانه وتحقق ما كان مستحيلاً.. قال: نعم، وما يدريك ..

وما يدريك ...

في الغرب لا يأمن أحد أحدًا على مفاتيح بيته ويسلمها له، فما الذي جعل امرأة يهودية مطلّقة، ولها ابنتان، إحداهما شابة، والأخرى طفلة، أن تستأمن أسرة مسلمة على بيتها وبناتها..!

ما الذي غيّر هذه اليهودية التي كانت في يوم من الأيام صهيونية متطرفة، قضت جزءًا ليس باليسير من حياتها في "الكيبوتس" لصناعة الصهاينة الجدد؟

نعم! ما يدريك؟ لعل أمرًا ما قد غيّر تصورات هذه اليهودية عن الحركة الصهيونية العالمية، وبدأت تستشعر عدالة القضية الفلسطينية، والظلم الذي يتعرض له الفلسطينيون عقودا طويلة..!

ميراف: جارتنا اليهودية

ومايُدريك ...

القصة بدأت في صيف عام 1989م، في مدينة إيست لانسينغ بولاية ميشيجان الأمريكية، في حي من أحيائها يدعى "بيل كريك"، وبالضبط في منزل رقم 1131 وينتر كرست.

بدأت نقطة التحول الكبير في حياة هذه الأسرة اليهودية خلال ساعات الظهيرة من أيام ميشيجان الصيفية الحارة وعالية الرطوبة، عندما كانت ميراف وابنتاها تعملن بجد وجهد لنقل عفش بيتهنّ الجديد من شاحنة يوهال U-Haul لنقل الأثاث، وقد أخذ التعب منهن كل مأخذ، وبلغ بهن الإعياء مداه.

في تلك اللحظات كانت في البيت المجاور رقم 1231 سيدة تشاهد ما يجري بالجوار، وتتأمل ما يعانيه أولئك النسوة.. لم تكتف بالمراقبة واللامبالاة، بل استشعرت ربة البيت - وكانت مسلمة - مسؤوليتها تجاه جيرانها الجدد، وما يعانونه من نصب وعطش، وربما جوع .. قامت السيدة المسلمة بإعداد فطائر الجبن وتحضير عصير التفاح البارد، وما هي إلا دقائق حتى لبست الجارة المسلمة حجابها وحملت ما أعدته للجارات الجديدات، وهي لا تعلم من أي بلد أو من أي دين هنّ. فلم تكن هذه الأمور والفروقات مهمة أمام حق الجار في الإسلام..!

وما إن أقبلت تلك الجارة المسلمة تحمل ما أعدته لجاراتها الجديدات - والتي لم يخطر على بالها أنهن يهوديات - حتى أصبن بالذهول لرؤية القادم، الجارة الجديدة المسلمة المحجبة ترحب بهن، وتخفف من نصبهن، وتقدم الضيافة لهن، أخلاق لم يعهدنها في مجتمع الجار فيه لا يهتم بجاره، فضلا عن أن يقدم أحد المساعدة أو يبادر بالضيافة.. هنا الأخلاق تختلف..!!

> كانت هذه الجارة المسلمة الكريمة الطباع تثير في ذهن أولئك النسوة اليهوديات تساؤلات كبيرة عن تلك الشبهات التي تثار عن الإسلام والمسلمين

فهذه أخلاق الإسلام في مجتمع نشأ على قيم الانفرادية واللامبالاة بالآخرين، لم تكن تلك الجارة المسلمة - وهي زوجتي أم أسامة - تعرف هوية أولئك النسوة، ولم تكن تهتم بذلك؛ فهن جارات، وهذا حقهن في الإسلام، بغض النظر عن المجتمع وقيمه.. تقبلن ضيافة الجارة المسلمة التي كانت هويتها واضحة لهن، فهن يعرفن النساء المسلمات الطاهرات جيدًا، يعرفن نساء الأقصى الصامدات العفيفات، يعرفن تضحيات النساء الفلسطينيات، ودورهن االعظيم في مقاومة المحتل، يعرفن صبرهن، وصلابتهن في إحباط التطبيع، والوقوف شامخات أمام كل المكائد ومواقف الانهزام والذل.

كانت هذه الجارة المسلمة الكريمة الطباع تثير في ذهن أولئك النسوة اليهوديات تساؤلات كبيرة عن تلك الشبهات التي تثار عن الإسلام والمسلمين، عن تلك الدعاوى الظالمة والصور المسيئة التي تبثها وسائل الإعلام الغربية ليلًا ونهارًا بصورة فاضحة ومجانبة للحقيقة..

كل تلك التساؤلات كانت تراود خلد أولئك النسوة، بينما كانت أم أسامة تقوم بواجبها دون أن تعرف الهوية الحقيقية لجاراتها الجديدات.. إنها الأقدار!

لم تكتشف أم أسامة حقيقة جارتها اللاتي سارعت بالإحسان إليهن إلا بعد حين، لكن ذلك لم يكن

يعني شيئا بالنسبة إليها؛ فالمسلم مأمور بالإحسان إلى جيرانه، ولها في رسول الله وتعامله مع جيرانه اليهود أسوة حسنة.

تمر الأيام وتكشف ميراف عن هويتها اليهودية بعد أن غيرت هويتها الصهيونية، بعدما رأت تعامل المسلمين، ورأت تعلق ابنتيها (بث وآن) بأم أسامة وأطفالها.

لقد كان لذلك اللقاء الأول الانطباع الكبير على عقليتها المتصهينة عن حقيقة المسلمين، ثم تغيير موقفها تجاه القضية الفلسطينية وتجاه الشعب الفلسطيني المظلوم.

قدم والدا ميراف من كندا لزيارة ابنتهما وأسرتها، وقاما بشكر أهل ذلك البيت المسلم الذين كان لتعاملهم بأخلاق الإسلام الأثر الكبير في تصحيح مفاهيم مغلوطة ومتأصلة لدى أسرة كانت صهيونية معادية لكل ما هو عربي ومسلم، وترى أحقيتها في أرض فلسطين، وتدعي علو عرقها على البشر كافة، نعم، لقد بدأت بالتعرف على حقيقة الكذبة الكبرى التي نشأت عليها في الكيبوتس الصهيوني، وغذتها بها الصهيونية العالمية ودعايتها المضللة.

وفي يوم من الأيام طلبت "بث" - الابنة الكبرى لميراف - من أم أسامة أن تقدم لها بعض المعلومات عن تعليم المرأة في السعودية، وأنها اختارت هذا الموضوع ليكون عنوان ورقتها البحثية التي ستقدمها في مدرستها، فأعطتها أم أسامة كتيبًا باللغة الإنجليزية يعرّف بتعليم البنات في السعودية، وبعد قراءتها الكتاب إذا بها تتأوه بصوت عال وبدهشة بالغة: "البنات لهن مدارسهن الخاصة والأولاد في مدارس منفصلة! كم أتمنى لو كان ذلك في أمريكا!!".

نعم.. إنها الفطرة الأنثوية داخل تلك الفتاة اليهودية الأمريكية التي نشأت في بلد الحرية والاختلاط، لم تكن هذه وجهة نظر "بث" اليهودية الأمريكية وحدها، إنما كانت تعبر عن مشاعر ملايين النساء الأمريكيات المنتهكة حقوقهن بدعوى الحرية، فالمدارس

والجامعات وكلّ المؤسسات فيها ما فيها من انتهاك لحقوق المرأة ماديًا ومعنويًا، فهي تتقاضى أجرًا أقل بكثير من الرجل، ومع ذلك تعمل أكثر منه وبجد أكبر! معدلات الابتزاز والاعتداء الجنسي والاغتصاب في تزايد مذهل!! والمضايقات المؤلمة والتحرش الجنسي في المدارس الأمريكية هو ما جعل "بث" تعبر بصراحة وحرية عن فطرتها الحقيقية.. نعم، إنها نداء الفطرة الكامنة في داخلها..!!

وما يدريك؟ لعل هذه الحقائق عن أهل الإسلام التي تطلع عليها هذه الأسرة اليهودية عن قرب يكون لها الأثر في نظرتها المستقبلية وانطباعاتها عن الإسلام، ذلك الدين العظيم الذي اختاره الله ليكون نبراساً للبشرية، وهداية لها ونورًا.

بل ما يدريك؟ لعل هذ السلوك الإسلامي - مع ما لدينا ولدى المسلمين عمومًا من تقصير كبير وضعف في تطبيق منهج الله في الأرض - الأثر البالغ في تغيير هذه الأسرة اليهودية، لتهتدي بهدي الإسلام، أو أن تصبح متعاطفة مع قضايا المسلمين، أو تخفف على الأقل من حدة عداوة مَن حولها تجاه الإسلام وأهله، وهذه أهداف مطلوبة في الدعوة إلى الله، وأمر الهداية بيد الله وحده.

وتمر الأيام، وننتقل إلى منزل أكبر بعيد قليلا عن منزل تلك الأسرة اليهودية، ولكن علاقة ميراف وبنتيها تستمر، بل وتزداد قوة، حتى بدأت البنتين بتطبيق كثير من أخلاقيات الإسلام، وبرضى من والدتهما، بل بلغت الثقة مبلغها لدى الولدة المطلقة، التي تأتي من عملها بعد الخامسة، وتسبقها بنتها بعد خروجها من المدرسة قرب الساعة الثالثة، بأن تسلم أم أسامة مفاتيح بيتها، وتطلب منها رعاية بنتيها حتى تعود من العمل، أمر لا يفعله أحد أبدًا في أمريكا إلا في حالات استثنائية كهذه..!! وعندما يثق تمامًا بمن يستأمنه على بيته وبناته.

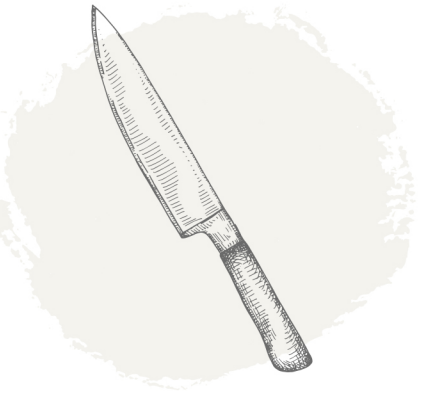

ولكن ثمة حادثة كانت في غاية الخطورة، أبانت تعلق تلك الأسرة اليهودية بجيرانها المسلمين، ففي غداة أحد أيام السبت، قدمت ميراف وابنتها الصغيرة وهما تصرخان بشكل هستيري، وتطرقان الباب، وبكلمات متلعثمة لا تكاد تفهم، ابنتها دخلت الحمام ومعها سكين تريد أن تقتل نفسها: "أرجوك... أرجوك ...أرجوك افعل شيئًا.. إنها تنتحر...!! لم أستطع إقناعها بالعدول عن قتل نفسها"، ثم انهارت بالبكاء..

ذهبت أنا إلى بيت جارتنا اليهودية أردد: وما يدريك، لعل نجاة هذه النفس البشرية تكون على يدي؟!

دخلت البيت، وبدأت مع البنت في حوار هادئ؛ لتهدئة روعها وامتصاص هيجانها، ومضت دقائق حرجة، وبينما كنت أحاور البنت، كانت أم أسامة تهدئ من روع جارتها ميراف وابنتها حتى تطمئنهما، وما هي إلا دقائق معدودة حتى طلبت من البنت أن تدفع بالسكين إلى خارج الحمام من تحت الباب؛ ففعلت، وذلك بعد أن وعدتها بإصلاح ما بينها وبين والدتها من سوء تفاهم ومشكلات أسرية.

حطمها طلاق أم وتهديد أب غير مسؤول؛ مما كان له لأثر النفسي الكبير على تلك الفتاة المسكينة التي لا ذنب لها..

لم تجد وسيلة تتعامل بها مع تلك المشكلات إلا أن تحاول إنهاء معاناتها بإنهاء حياتها!!

كان لهذا الموقف الأثر الكبير على حياة تلك الأسرة واستقرارها، فعندها أتذكر تلك المواقف وهذه القصة، وأثر التعامل الحسن في تغيير القناعات حتى عند أشد أعداء الإسلام من اليهود والصهاينة.. فما يدريك؟ لعل ميراف وأسرتها قد غيروا وجهتهم من التصهين إلى التعاطف مع قضايا المسلمين وقضية فلسطين على وجه الخصوص، واستشعار غدر الصهاينة باحتلالهم المرفوض، وممارساتهم العدائية تجاه الشعب الفلسطيني، واستشعار معاناة هذ الشعب المظلوم.

> كان لهذا الموقف الأثر الكبير على حياة تلك الأسرة واستقرارها!!

لقد امتد التأثير إلى أسرة ميراف في كندا، فقد قدم والداها ليشكرانا، وأبديا تعاطفهما مع قضية فلسطين، ووصفا الصهاينة بالعنصريين، وما يدريك؟ لعل الله يغير حال تلك الأسرة اليهودية، لتكون أسرة مؤمنة موحدة، عرفت الإسلام عن قرب، وعاشرت من تخلّق ببعض أخلاقه التي بهرتهم، وأزالت ما كان عالقًا بأذهانهم من شبهات ومعلومات ومفاهيم مغلوطة عن الإسلام والمسلمين والقضية الفلسطينية.

ما يدريك؟ لعل هذا كان نوعًا من إقامة الحجة العملية، ببيان حقيقة الإسلام من خلال التعريف به عمليًا، وهنا نتذكر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم لأخلاق" (السنن الكبرى للبيهقي 19096). وما كان يدريك، لعل في ذلك تأسيًا بمعاملة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لجاره اليهودي، وأثر المصطفى في هداية ابنه الذي كان على فراش الموت.

بينما كنا نسير في طريقنا إلى معقل النصرانية والأنشطة الكنسية في شمال شرق نيجيريا، مدينة جوس.

وعند مرورنا بقرية على جانب الطريق أخبرنا أحد المرافقين بأن أحد سكان هذه القرية كان قسًّا سابقًا ثم هداه الله للإسلام، وقد مرّ بتجربة عجيبة وتجشم مصاعب كثيرة وتحديات عسيرة من أجل إسلامه، فطلبت من رفاقنا الكف عن رواية قصته؛ لكي نسمعها من إبراهام نفسه عند عودتنا من جوس بإذن الله.

القس إبراهام

وما يُدريك ...

وفي طريق العودة كنت في شوق كبير لرؤية القس السابق، وسماع قصة هدايته العجيبة عبرت بنا سيارتنا شوارع القرية الترابية مرورًا ببيوتها الطينية، كان كل شيء حولك ينبئ بالبساطة والهدوء ورقة الحال.

وقفت بنا السيارة أمام بيت طيني صغير، مسقوف بالصفيح، قد علاه الصدأ.. لا يبدو أن هناك شيئاً من مظاهر المدنية في هذه القرية المنسية. وقد كنت في صحبة إخوة كرام، نذروا وقتهم وخبرتهم وعلمهم للعمل من أجل أهداف نبيلة، وهم: أ.د. علي كاملي، و د. عبد المجيد خان، وثلة أخرى من إخوة كرام.

لم تكن هناك حاجة لأخذ موعد مع القس السابق؛ فلم تكن هناك وسيلة للتواصل معه إلا الوصول مباشرة.

وما إن حطت رحالنا عند بابه حتى خرج علينا رجل في العقد الرابع من عمره، عليه هالة من الهيبة، رقيق الحال، نحيل الجسم، ذو ابتسامة ساحرة. رحب بنا، وأدخلنا إلى داره المتواضعة، كانت مكونة من غرفتين متداخلين، واحدة للضيوف، والأخرى للنوم، لم يكن هذا

المنزل الطيني مجرد بيت، بل كان مكتبة كبيرة على الرغم من صغر مساحته، فقد كانت الجدران مغطاة بالكتب، لو لم تكن تعرف أنك داخل قرية لا تكاد تجد فيها مظهرًا من مظاهر الحضارة، لظننت أنك في مكتبة من المكتبات العامة، وقد كان بيت إبراهيم الصغير كذلك.

بعد أن تجاذبنا أطراف الحديث طلبت من الأخ إبراهيم أن يحكي لنا قصة هدايته إلى الإسلام، وتركه النصرانية، بعد أن كان القس الأول لواحدة من كبريات كنائس شمال نيجيريا، التي غرسها المستعمر البريطاني في قلب الشمال النيجيري المسلم، وهيّأ لها كل وسائل البقاء والاستدامة، من مبان ضخمة، وإمكانيات مالية مستدامة، ودعم قانوني ولوجستي.

> **كنت من أشد الناس على الإسلام، وأكثرهم كراهية للمسلمين؛ فلقد غُذيت على ذلك منذ الصغر، وتربيت عليه في دراساتي اللاهوتية!!**

بدأ إبراهيم حديثه قائلًا: كنت قد تخرجت في الكلية اللاهوتية، وأُهلت لأكون قسيسًا، وحصل ما أردت، فكنت القسيس الأول في الكنيسة، وكما تعلمون، فقد كان للنصارى من مزايا واهتمام وترابط ودعم - رغم أنهم أقلية - ما لا يحظى به الغالبية من سكان شمال نيجيريا المسلمين، ولم يكن هناك نصراني واحد قبل الاستعمار.

وقد كانت الكنيسة تصرف للقساوسة رواتب مغرية وهبات متنوعة، وقد سلمت لي سيارة ومنزلًا فاخرًا، وتكفلت لي بكل ما أحتاجه؛ لأتفرغ لعملي بصفتي قسيسًا لتلك الناحية من شمال نيجيريا، بجوار مدينة جوس، وكنت من أشد الناس على الإسلام، وأكثرهم كراهية للمسلمين؛ فلقد غُذيت بذلك منذ الصغر، وتربيت عليه في دراساتي اللاهوتية، وكان بغضي للإسلام وللنبي محمد صلّى الله عليه وسلَّم وللقرآن شديدًا جدًا.

ولكنك لا تدري!

أقامت الكنيسة مؤتمرًا تنصيريًّا في مدينة كانو شمال نيجيريا، دعت إليه القساوسة والكاردينالات من كل أنحاء نيجيريا، ومن الدول الإفريقية المجاورة، وكان هذا المؤتمر يعقد في عدة أيام، وبينما كنت في طريقي من الفندق إلى قاعة المؤتمر لفتت انتباهي مكتبة لبيع لكتب، وكان على واجهتها كتاب معروض، أزرق اللون، بعنوان: الإسلام تحت المجهر Islam in Focus.

حقيقةً أثار العنون انتباهي، ولكني حاولت تجاهله عدة مرات، وفي كل مرة أمر أمام المكتبة يلفت انتباهي عنوان الكتاب، وبعد تردد شديد قررت أن أشتري نسخة من الكتاب؛ مبررًا ذلك بأني سوف أكون أكثر اطلاعًا على دين المسلمين المحرف وعقيدتهم الفاسدة - في نظري حينئذٍ -، فأكون أكثر تأثيرًا في تنصيرهم وصرفهم عن دينهم، وكان هذا محور اهتمام ذلك المؤتمر الكنسي.

وبالفعل اقتنيت نسخة من الكتاب وأنا في طريقي للفندق، ما إن وصلت غرفتي حتى عكفت على قراءته بكل تركيز، وكلما قرأت ازددت حماسًا لقراءة المزيد، مع أن صفحات الكتاب كانت تزيد على مئتي شصفحة، حتى قضيت تلك الليلة في القراءة بنهم دون توقف.

شعرت أنني بدأت أكتشف أمورًا جديدة، مغايرة تمامًا لما كنت أظنه في الإسلام، فنحن نعيش مع المسلمين في بلد واحد، ونتحدث لغة واحدة، وربما ننتمي إلى قبيلة واحدة، ولكننا كنا مغيبين تمامًا عن حقيقة الإسلام، بل إن كل ما ندرسه عن الإسلام هو شبهات تثار، ومعلومات مغلوطة تملى علينا ليلًا ونهارًا، وما إن بزغ الفجر حتى كنت قد أنهيت الكتاب.

لقد أشرق ذلك الصبح بفجر جديد في حياتي، شعرت لأول مرة في حياتي بلذة معرفة الحقيقة وانكشاف فرية الباطل، لقد تبددت شكوكي اللاهوتية، لقد أصبح الحق أبلجَ واضحًا وضوح شمس ذلك الصباح الجميل.

شعرت لأول مرة في حياتي بالحرية الحقيقية والطمأنينة.. لقد عرفت حقيقة هذا الدين الذي كنت من أشد أعدائه.

دمعت عيناي كثيرًا واعتصر فؤادي على ما كنت فيه من ضلالة، وما علمته للناس من جهالات لسنوات طويلة.

> عقدت العزم على ترك النصرانية والدخول إلى الإسلام دون أن أجلس مع مسلم واحد ليشرح لي أو يبين لي جوهر الإسلام.

وبعد أن اكتشفت الحقيقة لم أتردد لحظة في حزم حقائبي والعودة لبلدتي، وقطع علاقتي بذلك المؤتمر الذي لم يكن فيه إلا زرع الحقد والجهل، وترسيخ المعلومات المغلوطة عن الإسلام، نعم دمعت عيناي حزنًا على ما أسلفت من عمري، وفرحًا بمعرفة الحقيقة التي غيبت عنها سنين طويلة.

لقد تذكرت كلمات من الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام: "معرفة الحقيقة ستجعلك حرًا"، نعم أنا الآن حرٌّ في فكري وعلاقتي بربي، لم أعد مكبلًا بضلالات الكنيسة وتعاليمها المغلوطة المعادية للإسلام، دين السلام والهداية والسعادة.

لقد عقدت العزم على ترك النصرانية والدخول إلى الإسلام دون أن أجلس مع مسلم واحد ليشرح لي أو يبيّن لي جوهر الإسلام، فقد كان ذلك الكتاب مفتاح الهداية الذي ساقني الله إليه.

ولا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا؛ فبعد أن أحضرني الله إلى ذلك المؤتمر التنصيري في "كانو"؛ لدراسة أفضل السبل وأنجعها لتشكيك المسلمين في دينهم، واكتساب أفضل الطرق وأنجعها في تنصيرهم، ها أنا ذا أعود بكنز الهداية، متخليًا عن ضلالات الكنيسة، وذلك رغبة فيما عند الله ..

إنها الحكمة الربانية العظيمة، ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام.

كنت أعلم عواقب هذا القرار، على وظيفتي قسيساً، وعلى أسرتي وزوجتي وأولادي ومقتنياتي التي وهبتني إياها الكنسية، من سيارة ومنزل وراتب شهري مغرٍ، ومكانة اجتماعية، وهبات أخرى متعددة، واهتمام كبير.

أصبحت بعد أن عرفت الحقيقة على استعداد تام بأن أضحي بكل شيء؛ فلم تكن الكنيسة لتتقبل هول هذا الخبر، ولا يمكن أن تستوعب هذه المفاجأة الصاعقة، ولأول مرة أشعر أن حياتي في خطر وأني قد أُقتل في كلّ لحظة، كل هذه الخواطر سرت في مخيلتي، ولكنني قد عقدت العزم، وآمنت بالله ربًا وبمحمد نبيًا وبالإسلام دينًا، ولم أعد أبالي بشيءٍ أبدًا؛ فقد كنت مستعدًا للتضحية بكل شيء في سبيل الحق الذي عرفته.

عندما وصلت إلى بلدتي استقبلني أهلي وأبنائي بفرحة غامرة، وترحيب حار، بعد غياب عدة أيام، وكنت أقول في نفسي: هل ستستمر هذه المعاملة وهذا الحب والحفاوة إذا علموا بما أقدمت عليه..؟!

أخفيت عنهم إسلامي في البداية، وكنت أتحين فرصة يوم الأحد، حينما أعتلي منصة الكنيسة، لإلقاء القداس الأسبوعي المعتاد.

جاء يوم الأحد، وكنت متلهفًا لتلك اللحظة أيما تلهف.

عندما دخلت الكنيسة دقت أجراسها، وشرع الكورال في النشيد، وتحمس رواد الكنيسة لسماع القداس.. حينها تسنمت منصة القداس، والعيون محدقة، والآذان مصغية، وبدون مقدمات أو تردد صدحت بكلمة التوحيد: "لا إله إلا الله محمد رسول الله" مكررًا ذلك عدة مرات، فما إن سمع رواد الكنيسة ما أقول حتى صعقوا وأصابهم الذهول، فما كان مني إلا أن أبرأت ذمتي؛ بإبلاغهم أن ما هم عليه من نصرانية محرف، ولا يمت لرسول الله عيسى - عليه السلام - بصلة، وأن الإسلام هو الدين الحق، وأنه دين الأنبياء والرسل جميعًا عليهم السلام، وأني قد اخترته لنفسي بعد اقتناع وفهم، وأني أبرأ من كل ما كنت أدرّسه في الكنيسة، وأنني أدعوهم إلى الإسلام.

لقد كان أحد اصعب المواقف التي مررت بها في حياتي، ولكن الله رزقني رباطة جأش وثقة وقوة لم أشعر بها قط في سالف حياتي.

لولا قضاء الله للقس إبراهيم بحضور مؤتمر كنسي بوصفه قسيسًا يسعى للتنصير لما عرف الإسلام.

هاجت الكنيسة وماجت، وذهل الحضور بين مصدق ومكذب، أيعقل أن يعتنق القس إبراهيم الإسلام وهو راعي الكنيسة سنوات عديدة، ويترك ما كان يعتقد ويدرِّس سنوات طويلة..؟!!

ولم يكن ثمة بد من مواجهة الحقيقة.

علمت الكنيسة وأقطابها في نيجيريا بما حدث؛ فثارت ثائرتهم، وأصبح القس إبراهيم مستهدفًا في حياته، كان القس إبراهيم يعلم بأن قراره سيكون له آثار خطرة جدًا، لكن الحق أبلج، ومن عرف حقيقة الإسلام لا يبالي بأحد دون الله، لقد كان له في سلفه بلال بن رباح الحبشي - رضي لله عنه - أسوة حسنة.

لقد طرد إبرهيم من الكنيسة، وجرد من كل امتيازاته، تركته زوجته، هجره أبناؤه، أُخرج من منزله وسحبت منه السيارة، لم يعد يملك شيئًا، حاولوا معه بكل السبل ليعود عن اعتناقه الإسلام، ولكن هيهات.. فلا يمكن أن يبدل التوحيد بالشرك.

وعندما علم المسلمون في قرية مجاورة بما حل بالقس السابق إبراهيم فزعوا لنجدته، وحمايته، والدفاع عنه، خاصة عندما أحسوا أن حياته باتت في خطر.

كان لموقف القرية الأخوي في حماية إبراهيم والوقوف بجانبه الأثر الأكبر في تعميق مفهوم الأخوّة الإسلامية في قلب إبراهيم، بل إن أهل القرية بنوا له هذ البيت، وزوجوه زوجة مؤمنة متعلمة، كان لها أثر كبير في تثبيت الأخ إبراهيم، حتى أصبح أحد الدعاة المرموقين.

فلا تدري.. لولا قضاء الله للقس إبراهيم بحضور مؤتمر كنسي بوصفه قسيسًا يسعى للتنصير لما عرف الإسلام.

(لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا).

بدأت رحلة المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات قبل سبعة عشر عامًا، وتحديدًا في عام 1421 هـ.

وكان مقر المكتب آنذاك غرفة صغيرة تحت منارة جامع الجاليات، في الصناعية الجديدة بخميس مشيط، بداية متواضعة، مؤسسة دعوية في مدينة يقارب تعداد سكانها المليون، مكتظة بعشرات الآلاف من الجاليات، لم تكن هناك ميزانية ثابتة، ولا كادر إداري ولا دعوي. ولكن لا تدري، لعل هذا المكتب البسيط في بداياته يكون له الأثر الكبير، ليس في محيطه المحلي والإقليمي فحسب، بل يتعداه إلى العالم الفسيح.

من تحت المنارة إلى آفاق الأرض

وما يُدريك ...

كانت البداية فرعًا صغيرًا للجاليات في خميس مشيط، بدأها أخونا الفاضل، والمجاهد المجهول، وأحد مؤسسي دعوة الجاليات في المملكة: د. عبد الله بن علي أبو عشي. حيث كان الإيجار يدفع بعد معاناة كبيرة لتوفيره من المحسنين.

كانت الدروس صباحية للجالية الهندية، تدرس فيها العقيدة والسيرة النبوية، ويشارك فيها بعض المشايخ وأساتذة الجامعات، منهم: د. محمد مرزن عسيري، والشيخ علي آل فردان، وغيرهما، وكان د. عبد الله أبو عشي يحضر الفطور - تميس وفول - ولم يكن في المقر إلا غلاية للشاي، كانت الأعداد تصل إلى خمسين شخصًا، كانوا يحضرون بشكل دوري، واستمر الوضع عدة أشهر، حتى بدأ المقر يتطور تدريجيًا، وبدأ نشاط يوم الجمعة كاملًا، وفي تلك الرحلة انضم إلى العمل: أ.د. محمد زايد، وأ. سلطان الشهراني، ثم تبعهم أ. عايض الشهري، وأخوه أ. حسن، وغيرهم من المحتسبين.

وقد كان المقر شعبةَ جاليات تتبع فرع الوزارة، وكان من الصعب إنشاء حساب مَصْرِفيّ مستقل، أو إنشاء تنظيمات إدارية ومالية،

ومالية، فكان العمل يسير بجهود محدودة، على الرغم من الإقبال الكبير للجاليات، واشتياق كثير من غير المسلمين للإسلام.

وكانت المصروفات تدفع مباشرة من المتبرعين - جزاهم الله خيرًا - للجهات المستفيدة، من إيجار وضيافة وغيرها من نفقات.

> كانت بداية متواضعة جدًا، فلم تكن هناك ميزانية، ولا مقر، ولا لوائح، ولا عاملين، ولا دعاة

وقد تبرع أحد الفضلاء - وهو الشيخ عوضة الأحمري - بأن تنازل عن أحد مكفوليه، وكان من خريجي الجامعة الإسلامية، للعمل في المكتب، واسمه/ بخاري طاهر من الفلبين، ومضت الأيام حتى يسر الله الحصول على موافقة الوزارة على فتح مكتب تعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بخميس مشيط، وكان للشيخ الدكتور/ جبران الفيفي -وفقه الله - أثر كبير في مخاطبة سمو أمير المنطقة ومعالي الوزير، للمطالبة بفتح مكتب تعاوني في المحافظة، وتحقق ذلك بفضل الله عام 1421 هـ، وكان أول مجلس إدارة يتكون من الشيخ جبران الفيفي رئيسًا، والشيخ عبدالله الضالع نائبًا، والشيخ أحمد بن عطيف عضوًا، والشيخ سعد الحسنية عضوًا، ود. محمد بن زايد الشهراني عضوًا، ود. عبد الله بن هادي عضوًا ومشرفًا على المكتب، والشيخ محمد عوض السرحاني عضوًا.

كانت بداية متواضعة جدًا فلم تكن هناك ميزانية، ولا مقر، ولا لوائح، ولا عاملون، ولا دعاة، أي كان إنشاء المكتب حبرًا على ورق، ولكن توفيق الله تعالى وعونه كان عظيمًا، إذ وُفّق أعضاء المجلس ومن انضم إلى المكتب مبكرًا للعمل الدؤوب، ومن أهمهم: الشيخ محمد بن صالح آل زارب الذي آثر التجارة مع الله على تجارته الدنيوية، فتحمل مسؤولية الإدارة المالية، وأرسى دعائم عمل مالي ومحاسبي منظم، يجني المكتب ثماره حتى هذه اللحظة.

كما انضم إلى المكتب الشيخ علي بن فايع الشهراني، وتسلم ملف الإدارة التنفيذية، ثم التحق بالركب بعد ذلك عدد من الإخوة الفضلاء، منهم د. أحمد الفيفي، بينما واصل الأستاذ سلطان الشهراني تعاونه بجهد متميز، ثم انضم للمكتب الشيخ موسى القبيسي.

وبدأت مسيرة مؤسسة صغيرة تمتلك القليل من المقومات المادية، لكنها بفضل الله تمتلك نخبة من ذوي الهمم التي تعانق رؤوس الجبال، هكذا نحسبهم والله حسيبهم.

بدأت المسيرة بالاجتماع المؤقت وتكوين المكتب في مقر شعبة الجاليات التابعة للوزارة في وسط البلد، ريثما يتسنى إيجاد مقر ثابت للمؤسسة الناشئة.

وعُرضت على المكتب في ذلك الوقت إدارةُ جامع جديد يبنى في الصناعية، سمي فيما بعد بجامع الجاليات، وما زال يعرف بهذا الاسم حتى اليوم، وبدأت الأنشطة هناك، على الرغم من أنه لم يكن ثم مكان مهيأ إلا غرفة تحت مئذنة الجامع، الذي كان ما يزال عظمًا تحت الإنشاء، وبدأ أول مشروع جماهيري للمكتب من خلال مشروع إفطار صائم في رمضان عام 1421 هـ.

بدأت أعمال تلقي التبرعات بعد أن تم فتح حساب في مصرف الراجحي باسم المكتب، وأعلن افتتاح المكتب رسميًا في مسرح المعهد العلمي بخميس مشيط، في شهر رمضان 1421 هـ.

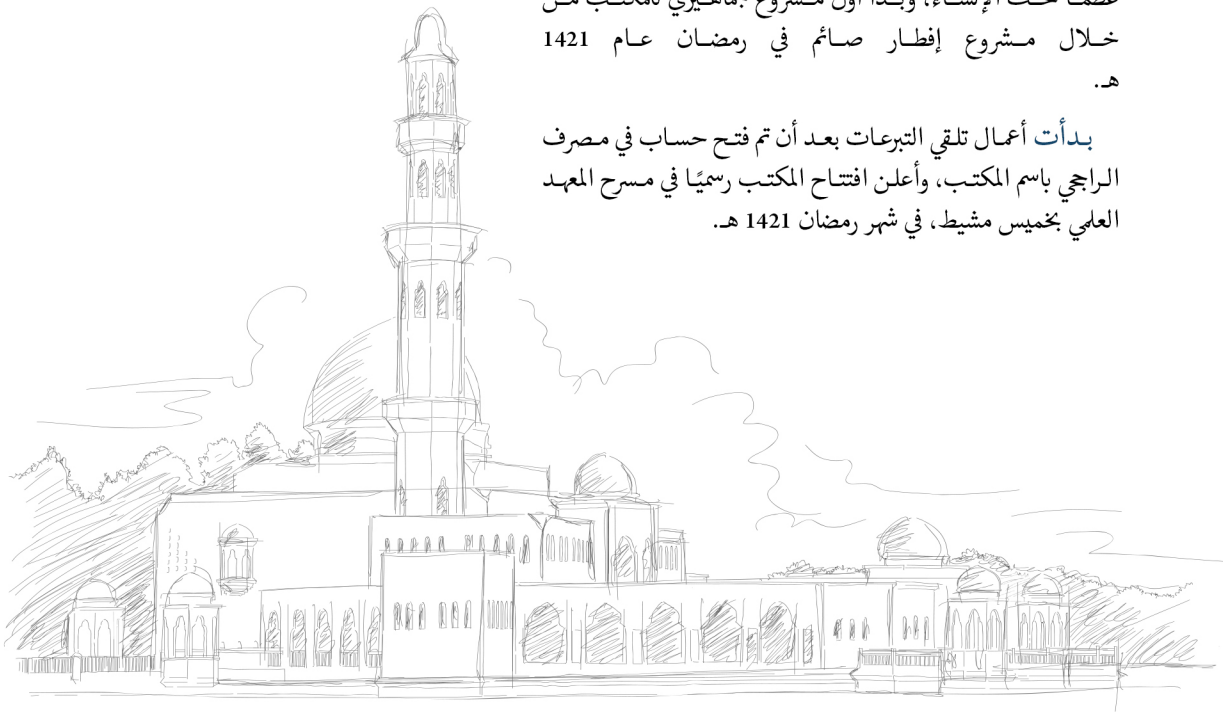

بحضور محافظ خميس مشيط، الشيخ عبد العزيز بن سعيد بن مشيط، ونخبة من مسؤولي المحافظة والمشايخ والمهتمين، وجُمِعَ في تلك الليلة ما يكفي لوضع اللبنة الأولى للمكتب، ولقي افتتاح المكتب قبولًا طيبًا بين أطياف المجتمع المختلفة.

ثم بدأت نشاطات المكتب الدعوية المحدودة من خلال بعض الدروس في الصناعية، وقد كان الاهتمام الأكبر منصبًا على تأسيس الأنظمة المالية والإدرية للمكتب، تلا ذلك وضع خطة لقبول التبرعات، والتأسيس للاستدامة المالية ولأنشطة المكتب، وقد كان تفاعل المجتمع بجميع أطيافه الرسمية والأهلية طيبًا بفضل الله، فهذه بلاد الدعوة وقبلة المسلمين، وأهلها - بفضل الله - مجبولون على الإنفاق وفعل الخير.

ثم تلا ذلك تواصل الدعم من المحسنين لبناء مبنى صغير بجوار جامع الجاليات؛ ليكون مقرًا للمكتب في المنطقة الصناعية، وتم ذلك بفضل الله ثم بجهود الإخوة الكرام أعضاء المكتب ومتابعتهم، وبجهد مشكور من الأخوين فهد الجابر وإبرهيم الشهراني، وخلال أقل من عام تحولت أنشطة المكتب من غرفة صغيرة تحت منارة المسجد - أصبحت مستودعًا للمكتب فيما بعد - إلى المقر الجديد.

وتمر الأيام، وكان جمع التبرعات يتم من خلال الصناديق والتبرع النقدي المباشر في المساجد آنذاك، وكان إيجاد مقر في مدينة خميس مشيط أمرًا ملحًا؛ إذ أصبح مقره الحالي في الصناعية الجديدة بعيدًا عن النطاق المدني، ولذا رأى المجلس التنفيذي للمكتب استئجار موقع في البلد يكون مقرًا للمكتب، يتم من خلاله إدارة نشاطاته المالية والإدارية والدعوية، فتم استئجار شقتين على الشارع العام مع سطحهما، وبدأت بفضل الله نشاطات المكتب تتوسع، وتم استقطاب طاقات إدارية متمرسة، مثل: د. عبدالله محجوب، و أ. أحمد أبو الخير، كما تم التعاقد مع مجموعة من الدعاة

من خريجي الجامعة الإسلامية، وبذل في انتقائهم جهدٌ كبير، وكان منهم الشيخ سعود مقصود، والشيخ عبد الحميد صديق، وغيرهما، ومع تزايد إمكانيات المكتب وتوفر الدعاة المتحدثين بعدة لغات انتشرت مناشطه، وتوسعت أعماله.

وبدأ المكتب ينتج مشاريع دعوية جذابة ومتميزة، منها: مشروع السراج، وحقيبة داعية، وهدية زائر، والحقيبة الدعوية بعدة لغات، ومشروع الدعوة في الآفاق، وغيرها، وكان للمشروع الأخير - الدعوة في الآفاق - الأثر الكبير في انتشار صِيت المكتب على مستوى المملكة، ويتلخص هذا المشروع في إرسال كتب تعريفية عن الإسلام لكل مكتبات العالم التي يمكن الوصول إليها، بكل اللغات المتاحة، وكان الهدف أن يجد القارئ الراغب في التعرف على الإسلام مطبوعات موثوقة في مكتبة حيه أو جامعته أو سجنه أو دور العبادة لتي يغشاها.

ولقد انبثقت رؤية المشروع من وعد الصادق المصدوق: "ليبلغن هذ الأمر ما بلغ الليل والنهار ... الحديث" (أحمد 16998).

بدأ المشروع بطيئًا جدًا ومتعثرًا، وكان ذلك التعثر يعود إلى صعوبة الحصول على عناوين المكتبات البريدية بسهولة، كما كانت هناك عقبات مالية لانطلاقة المشروع، وكان الهدف الوصول إلى 100,000 مكتبة حول العالم، خلال عشر سنوات، وكان البلد المستهدف الأول هو الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك للإسهام في توضيح حقيقة الإسلام ورسالة بلاد الحرمين الشريفين.

> بالحصول على هذا الكم الهائل من عناوين المكتبات كنا قد اجتزنا عقبة تنظيمية مهمة نحو تحقيق أهداف البرنامج

بدأ المشروع بمشاركة أحد الإخوة الأمريكان من المسلمين الجدد، واسمه خالد ريد، حيث تبرع بجزء من أثاث منزله للمكتب، وكان ذلك عام 2002 م، وخلال فترة وجيزة تم الحصول على قرص مدمج (CD)، يحوي أكثر من 92,000 مكتبة مسجلة رسميًا في الولايات المتحدة الأمريكية، تشمل مكتبة الكونجرس، ومكتبات الجامعات والمعاهد والمستشفيات والكنائس والمدارس، والمكتبات العامة، ومكتبات السجون، وغيرها.

وقد حظي أحد الإخوة بهذا الفضل، االذي بذل جهدًا كبيرًا حتى تم شراء ذلك القرص الذي سهل العمل، وكان هو أخي الشقيق المهندس ناصر بن هادي، عندما كان مبتعثا للدراسة في جامعة إي اند إم في تكساس.

وبالحصول على هذا الكم الهائل من عناوين المكتبات كنا قد اجتزنا عقبة تنظيمية مهمة نحو تحقيق أهداف البرنامج، ولكن التحدي المالي مازال قائمًا.

وبعد مضي بضعة أيام قدم إلى المكتب عقبَ انتقال العمل إلى الشقتين الصغيرتين على الشارع العام أحدُ المحبين للدعوة إلى الله، وكان ذلك بعد صلاة الجمعة حين دخل هذا الأخ المبارك، ولولا رغبته في عدم ذكر اسمه لذكرته، وبعد حديث قصير عن

التحديات التي واجهتها برامج المكتب، جاء الحديث عن مشروعات المكتب الدعوية، وما إن تم عرض فكرة مشروع الدعوة في الآفاق حتى بادر بالرغبة في التبرع للمشروع، فأخرج دفتر الشيكات من جيبه وقال: أكتب ما تريد يا أخ عبدالله، فهذا مشروع لا يفوت.

فقلت: هذا مالك وقدم لنفسك ما تريد، فأقسم بالله ألا يكتب الشيك إلا أنا. فقلت: سأضعها في الشروة. وهو مَثَل معناه أنني سأرفع سقف التبرع قال: افعل ما ترى.

بدأ المشروع موجهًا للمكتبات الأمريكية، وتم الاعتناء بنوعية الكتب المرسلة والخطابات والاستبانات المصاحبة للإرساليات

فأخذت دفتر الشيكات وكتبت مبلغ 100,000 ريال، فما كان منه إلا أن وقع الشيك بكل سرور، بل شكرَنا على إتاحة الفرصة له ليسهم في هذا المشروع الرائد في هدفه وفكرته وآلية تنفيذه، وكان هذا التبرع يمثل الدعم الأول القوي لانطلاق المشروع.

بدأ المشروع موجهًا للمكتبات الأمريكية، وتم الاعتناء بنوعية الكتب المرسلة والخطابات والاستبانات المصاحبة للإرساليات، حيث تمت مراجعة الخطاب المرافق للإرسالية الأولى من قبل ستة من المتخصصين.

كان فريق العمل يعمل بطاقته الإنتاجية العليا، فكان يتم تجهيز ما يقارب 100 إرسالية يوميًا.

بعد مرور أسابيع قليلة بدأت الردود تتوافد بالمئات، وكان ما يزيد عن 80% منها يطلب المزيد، ويشكر المكتب على هذه المساهمة لتجلية الصور الذهنية عن الإسلام، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

ولقد كانت رسالة المشروع: تعزيز التسامح والتفاهم، وكان من بين الردود التي وصلت وأعطت مؤشرًا لتفاعل المستفيدين من البرنامج رسالة من أمينة مكتبة في انديانا؛ ذكرت فيها أنها قد استلمت

الرسالة والاستبانات والكتب، وأنها سعيدة جدًا بوجود هذا المشروع الذي يعرف بالإسلام بطريقة هادئة وجميلة، ويصل إلى المكتبات بشتى أنواعها، وذكرت أنها عاشت في المنطقة العربية اثني عشر عامًا، ستة منها في جدة، كانت - حسب تعبيرها - أجمل سنوات حياتها، ومع أنها كانت غير مسلمة فقد أبدت سعادتها بكونها سفيرة للتعريف بالإسلام، وبالسماح لمرتادي مكتبتها بالاطلاع على الكتب التعريفية بالإسلام، التي يتم إرسالها إليها.

كما ورد إلى المشروع رسالة أخرى من أحد أساتذة الأديان في جامعة أوهايو، امتدح فيها آلية المشروع والكتب المرسلة، وأنها قد أرسلت إليه ليراجعها قبل إيداعها مكتبة الجامعة، وكان له طلب عجيب، إذ قرّر أحد هذه الكتب على طلابه في قسم الأديان، وأبدى رغبته في شراء نسخ كثيرة لتكون ضمن المقرر الدراسي للمادة.

وتوالت بشائر المشروع بفضل لله؛ فقد وردت رسالة من صيدلاني بولاية كارولينا الشمالية، يذكر فيها أنه عند زيارته لمكتبة الحي الذي يسكن فيه لفت انتباهه كتاب باللغة لإنجليزية؛ عنوانه: "عندما انشق القمر"، وضعه أمين المكتبة في رف الكتب التي وصلت إلى المكتبة حديثًا، فاستعار الكتاب، وشرع في قراءته هو وأفراد أسرته، وقد كان الكتاب حول سيرة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، فأُعجب بالكتاب جدًّا، وقال: إنه يأمل أن يحظى بنسخة من الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وقد كان له ما يريد؛ فقد أرسلت له نسخة من ترجمة معاني القرآن الكريم.

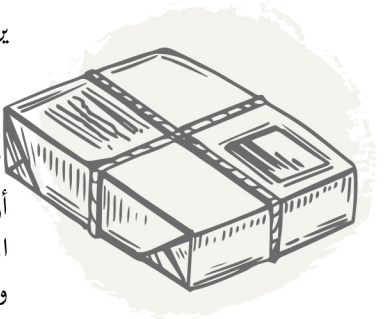

وفي أقل من شهر إذا برسالة عبر البريد الإلكتروني من هذا الصيدلاني، ذكر فيها أن اسمه "نويل جونسون" وأنه قد اعتنق الإسلام، هو وأفراد أسرته، وأصبح اسمه عبد الله جونسون، وقد أرفق في البريد صورته وهو يعلن إسلامه في المركز الإسلامي في المدينة، وصورته مع ابنيه وهو يحتضن ترجمة معاني القرآن الكريم، ويقول: هذا ما سأتركه لأبنائي.

استمر المشروع - بفضل الله - عدة سنوات، وبلغ الآفاق ينشر دين الله، فلا تكاد ترى مكتبة صغيرة أو كبيرة إلا دخلها كتبٌ من كتب هذا المشروع الذي يتحدث عن الإسلام، وكلنا أملٌ في أن يصب في مظاهر تحقق بشارة النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مكة ورمضائها، يواجه تحديات قريش وعنتها، عندما أعلنها صريحة، في وقت كان المسلمون قلة، والدعوة محدودة مخنوقة، ليبين لمناوئيه ضيق أنفسهم وعظمة هذه الرسالة العالمية: "ليبلغن هذا لأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل ...الحديث" (أحمد16998).

نعم، خلال سنوات معدودة يخترق هذا الدين الجدران العاتية لأكثر من 60 الف مكتبة في العالم، بأسلوب دعوي راق، في غاية من التنظيم والإحكام، وقد بلغ ما ورد من الرسائل المجيبة على الاستبانات ما يزيد على 20 الف رد.

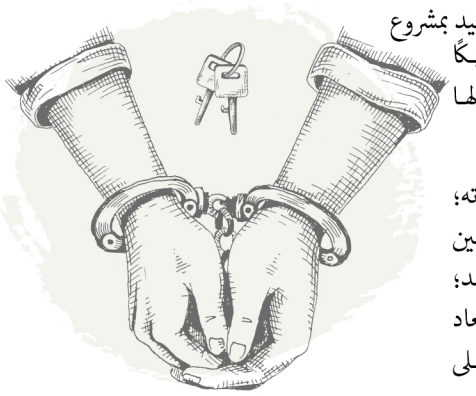

الغالبية الساحقة منها - وتمثل ما يزيد على 80% - تشيد بمشروع "الدعوة في الآفاق"، بل أصبح المكتب صديقًا وشريكًا لمئات المكتبات في العالم، وصرنا من ضمن الداعمين لها بالمطبوعات المفيدة.

ثم مرت مرحلة بالمشروع، تعطلت فيها نشاطاته؛ لأسباب إدارية وتنظيمية خارجة عن إرادة القائمين عليه. ولكن ما يدريك؟ فلله الأمر من قبل ومن بعد؛ فقد سقطت أقنعة، وظهرت معادن نفيسة، واستعاد المشروع عافيته، واستأنف نشاطاته، بعد انقطاع زاد على ثلاثة أعوام. دين الله عظيم، وحكمته أجل وأعلى.

وتمر الأيام.. وتصل رسالة اخترقت الأبواب المغلقة وجدار السجن الصلبة وأسواره العالية في أقصى الكرة الأرضية نحو الجنوب، من جوار رأس الرجاء الصالح، تبلّغ خبر إسلام عشرين شخصًا، واختيارهم هذا الدين العظيم، وأنهم يرغبون في المزيد من

العلم؛ ليعبدوا الله على بصيرة، كان العتق من قيود الكفر أحب إليهم من الحرية خارج أسوار السجن.

وعودًا على بدء، فلقد بدأت أعمال المكتب وأنشطته تتوسع، والإقبال على خدماته تتزايد، والمحتسبون للعمل ينشطون بفضل الله، مؤمنين بأن قدرنا أن تكون بلادنا قبلة المسلمين ومهبط الوحي، الوحي، فمنها سيد العالمين عليه من ربه أفضل صلاة وأتم تسليم.

> **فاقت برامج المكتب كل التوقعات بفضل الله، وقد طبعت فيه ملايين الكتب والنشرات، واستحدثت العديد من المناشط لكل أفراد المجتمع**

والمكتب الآن - بفضل الله ثم بجهود المخلصين من أبناء هذه البلاد ودعم من المحسنين وبتشجيع ولاة أمرنا - تتنوع نشاطاته، ويدخل عن طريقه المئات في دين الله ممن يفد للعمل بهذه الديار من غير المسلمين، وقد بلغ عدد من أسلم عن طريقه حتى تاريخ كتابة هذه الأسطر ما يقارب 7000 شخص.

لقد فاقت برامج المكتب كل التوقعات بفضل الله، وقد طبعت فيه ملايين الكتب والنشرات، واستحدثت العديد من المناشط لكل أفراد المجتمع، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، مسلمهم وكافرهم، فأصبح المكتب بفضل الله واحدًا من المؤسسات الدعوية العريقة، فلا تمر ساعة من ليل أو نهار إلا وفيها فعاليات دعوية، بشتى أنواعها، تسهم في نشر هذا الدين العظيم وقيمه وأخلاقه العظيمة، وتقاوم الأفكار الضالة والعقائد المنحرفة.

لقد أصبح منارة إشعاع وقبس هداية، وما كان يدريك أن تلك البداية المتواضعة من تحت تلك المنارة الشامخة تصبح نورًا وهاجًا يضيء في أنحاء الدنيا كافة.. لقد بدأ المكتب قبل 61 عامًا، برؤية كان شعارها: "ساهم معنا في نشر الإسلام"، إلى أن أصبحت رؤيته: "حياتنا دعوة"!.

ونأمل أن تظل حياتنا دعوة حتى الممات..

وما يدريك...

بينما كنت في أول المرحلة الجامعية عام 1402 هـ، وبعد أن أصبح من الصعب التوفيق بين الدراسة الجامعية وعملي في محل العطور الذي يتطلب حضورًا مستمرًا، فكرت أنا وأحد زملائي القريبين مني - والذي كان متزوجًا في ذلك الوقت ولديه أبناء - أن نجد مجال عمل لا يتعارض مع الدراسة، ويدر علينا دخلًا جيدًا وبعد استعراض ما كان متاحًا في ذلك الوقت، وبعد استشارة بعض الزملاء في الجامعة الذين كانوا يقومون بأعمال إضافية، جاءت فكرة العمل في الخطوط الجوية السعودية؛ وذلك لأن أعمالها تقوم على حصص الدوام الدورية المتعاقبة، فهذا يسهل الدراسة في الصباح والعمل في المساء، وهذه المرونة في العمل قد تمكننا من تحقيق المصلحتين: الدراسة والعمل.

الدكتور بدلًا من موظف الحجز

وما يُدريك ...

وتم التقدم لطلب التوظيف، وحولت طلباتنا للإدارة العامة للخطوط الجوية العربية السعودية في جدة، وتقدمنا هناك لبعض الاختبارات والمقابلة الشخصية، وتم قبولنا في وقت وجيز بفضل الله، وكان التخصص في اللغة الإنجليزية عاملًا مساعدًا في الحصول على الوظيفة.

بدأ عملنا مع بداية شهر رمضان عام 1402 هـ، وكان ذلك خلال الإجازة الصيفية، وقد كان انسجامنا مع زملاء العمل سريعًا وسلسًا، خاصة أن حماسنا كان متوقدًا؛ فرحًا بهذ الوظيفة، ورغبة في إثبات ذاتنا، والاعتماد على أنفسنا، فكنا نتعلم بسرعة فاقت من سبقنا بأشهر كثيرة بفضل الله، وقد تم توجيهي للعمل بقسم الحجز، في غياب أجهزة الحاسب الآلي آنذاك كانت مهمة عمل الحجوزات شاقة جدًا، خاصة عندما يتعلق الأمر برحلات دولية، وتزيد تعقيدًا عندما تكون هذه الرحلات عبر محطات توقف متعددة، بل تصبح المهمة أكثر صعوبة من ذلك عندما يتناول الحجز أكثر من شركة طيران، وكان التلكس هو وسيلة التواصل الأساس للحجز، كما كانت معرفة التعامل مع جداول الرحلات حسب دليل الإياتا المعقد

المعقد المكتوب باللغة الإنجليزية، وتكوين خط السير، والتأكد من إمكان الرحلات، غاية في التعقيد، فلم يستطع إجادتها الكثير ممن سبقونا، وبفضل الله تعلمنا ذلك بإتقان في فترة وجيزة، بل تفوقنا على زملائنا الذين أمضوا وقتًا طويلًا، وسبق لهم حضور دورات تدريبية في هذا المجال، ولكنه توفيق الله، ثم صدق الرغبة في العمل، وإتقان اللغة الإنجليزية.

> **بعد مرور ما يقارب الشهر على العمل بجد ومثابرة، فإذا بمدير المكتب يستدعيني للحديث في أمرٍ هام**

وبعد مرور ما يقارب الشهر على العمل بجد ومثابرة، فإذا بمدير المكتب يستدعيني للحديث في أمر هام، قلت في نفسي: عسى أن يكون خيرًا بإذن الله، بدأ الحديث بأنني أثبت جدارتي منذ البداية، وليس هناك ملاحظات على عملي، ولكنَّ هناك أمرًا مهمًّا لا بد من أخذه بعين الاعتبار، وما هذا الأمر؟!

هو كما ذكر مدير المكتب في حينها: إنك طالب جامعي، وقد يتعارض عمل الخطوط مع دراستك، وأنت بالخيار، إما أن تتفرغ للعمل كليةً، أو أن تختار التفرغ للدراسة، أما الاحتفاظ بالأمرين فهو غير ممكن.

وكان هذا الطرح مفاجئًا لي، ومحبطًا في نفس الوقت، خاصة مع معرفتي عددًا كبيرًا من الزملاء في الجامعة يعملون في قطاعات الخطوط الجوية المختلفة، من مكاتب الحجز والمبيعات والمطار وغيرها، واستطاعوا أن يوفّقوا بين عملهم ودراستهم.

كان خبرًا غير متوقع، أخلّ بتوازني، حتى إنني توقفت عن الرد فترة ليست قصيرة، طلبت بعدها إعطائي مهلة للتفكير في الأمر، ولم أشأ أن أذكُر أنّ زميلي الذي تعينت معه في نفس اليوم وبنفس القرار لم يُبلَّغ بما أُخطرت به، ولم يُخيّر بين البقاء في العمل والدراسة.

وما كنت لأتحدث عن ذلك، خاصة أنه أخ كريم ولديه عائلة وأطفال، وتعاملت مع الأمر كأنه شأن شخصي بحت.

لقد كان خبرًا مؤلمًا أربك كل مخططاتي، ولكن (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا)!!

هِمت على وجهي، خاصة أنني كنت في مدة تجربة، وبعدها وبعدها قررت بعد تردد عرض الأمر على والدي - حفظه الله -؛ لعلمي بعلاقته الوثيقة مع أحد الأقرباء الذي كان يعمل في مرتبة وظيفية عالية في الخطوط السعودية.

لم أكن أتصور وأنا أقدم استقالتي القسرية قبل عدة سنوات أنني أتخلص من أمر قد يكون له أثر سلبي كبير على مسيرتي في الجامعة وتفوقي الدراسي

ولكن ما زادني حيرة وألما أن الوالد لم يأبه كثيرًا بالموضوع، وكأنه يقول لي: هذا شأنك، وربما كان يفضل أن أتفرغ للدراسة، وأن الجمع بين الوظيفة والدراسة قد يكون له انعكاس سلبي على تحصيلي العملي.

ورغم حاجتي للبقاء في الوظيفة قررت أن أستقيل، وأوحد الوجهة، بأن أصب عنايتي نحو دراستي، وقلت في نفسي: وما يدريك؟ لعل الله يريد لك أمرًا لا تعلم كنهه.

حقيقةً إنَّ الموضوع لم يكن باليسير، ووقعه على نفسي كان كبيرًا جدًا، ولكنك لا تدري..!

نعم؛ (لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا)، مرت الأيام.. ويسر الله أن أكون الأول على دفعتي، وأتخرج بمرتبة الشرف، وأُعيَّن في الجامعة معيدًا، ثم ابتعثت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وحصلت بفضل الله على الماجستير ثم الدكتوراه، وأعود لأعمل أستاذًا مساعدًا في جامعة الملك سعود، في ذلك الوقت، بفرعها في أبها.

لم أكن أتصور وأنا أقدم استقالتي القسرية قبل عدة سنوات أنني أتخلص من أمر قد يكون له أثر سلبي كبير على مسيرتي في الجامعة

وتفوقي الدراسي، فكان من توفيق الله لي أن أحصل على أعلى درجة علمية من جامعة من أفضل الجامعات الأمريكية..!

كان علي ألا أحزن، ولا أحمل في نفسي على من أجبرني على الاستقالة، بل كان الأحرى أن أشكره، فلولا ذلك القرار لما تحقّق ما كان؛ فإنما كان أداة لتحقيق إرادة الله.

نعم لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا، أنت تريد، وأنا أريد، والله يفعل ما يريد، ودائمًا إرادته واختياره لعبده خيرٌ من اختيار العبد لنفسه، نعم، إنها مشيئة الله تعالى، فلو كُشِفَ ستر الغيب لما اختار الإنسان إلا ما اختاره الله له، فله الحمد والفضل والمنّة.

الفهرس

من اليتم إلى الريادة	8
من كنيسة مهجورة إلى مسجد عامر	20
عظمة والد مشفق وطموح فتاة مكفوفة..!	30
من لندن إلى ينكاري	46
ورطة في مطار لاجوس	60
كومار من كليفلاند إلى مكة	70
ميراف: جارتنا اليهودية	78
القس إبراهام	86
من تحت المنارة إلى آفاق الأرض	96
الدكتور بدلًا من موظف الحجز	108

وما يُدريك ...